رواية

مشاري بودريد

اسبيرانزا

s p e · r à n · z a

mellbooks210

إسبيرانزا

رواية

مشاري بودريد

ستقرأ إسبيرانزا، فتخلنها حكاية امرأة، ثم
تكتشف أنها حياتي بأكملها. يوم تفهم هذا،
ستعرف أن كل الكُتَّاب عابرون، إلا أنا.

t.me/books210

إهـــــداء

إلى مَن لم يعد يُفاجَأ بأيِّ أمرٍ من أمور
الحياة، سيُفاجئك الله بما انتظرته طويلًا،
ليُعيد إليك كلَّ ما ظننته لن يعود.

عندما تجده، يغيب..
وعندما تغيب، يبحث عنك..

t.me/b

إسبيرانزا

اسم إسباني بمعنى الأمل

t.me/ks2ks2

لنُبحر معًا

t.me/books210

قالت وهي تحدّق في الفراغ أمامها، كأنها تخاطب شيئًا لا يُرى:

- لم يكن ينقصني شيء، ومع ذلك، كنت أشعر أن أحدًا ما يعيش حياتي قبلي.

نظر إليها باستغراب، لم يجد في عبارتها معنى واضحًا. فأجابها متردّدًا:

- ما الذي تعنينه بذاك؟

ابتسمت ابتسامة باهتة، ثم قالت:

- أعني أنني كنت أصل دومًا بعد انتهاء كل شيء. أحبُّ، فلا يُبادَل حبّي. أحلم، فيسبقني غيري إلى الحلم. أفرح، فيفسد الفرح في يد غيري قبل أن أذوقه. كنت أشعر كأن حياتي تُجرَّب أوّلًا على أحدٍ سواي، ثم تُلقى إليَّ ناقصة.

ظلّ صامتًا، لكن عينيه كانت تسأل، فمالت نحوه وهمست:

- حتى أنت، حين أحببتك، شعرت أن قلبك قد جُرِّب قبل أن أصل.

طال الصمت في صدر -مشاري- أكثر من اللازم، كأن للحديث كفًّا صفع قلبه مما تقول إسبيرانزا. فقالت وقد كانت تُخفي خيباتها:

- حتى حين أكون سعيدة، أشعر أنني أؤدّي دورًا كُتب لي قبل أن أُخلق.

قال، وهو يرمقها بنظرة لم يعرف إن كانت شفقة أم خوف:

- وهل الحياة تمثيل دائم؟

هزّت كتفيها كمن لا يريد أن يبرّر شيئًا، ثم تمتمت:

- ربما.. وربما نحن نحيا فوق نصوصٍ كتبها غيرنا، ونُمنع من تعديلها.

قال فجأة، حين شعر أنه أمسك بخيط فكرة هاربة:

- ولهذا تكتبين لي كثيرًا، كأنك تحاولين إعادة كتابة شيء ما.

أجابت دون أن تنظر إليه، وقد أخذ الهواء يصفف شعرها:

- أكتب لك لأن قلبي أضيق من أن يحتملك وحده، أكتب لك كي لا أحبك أكثر، لا أقل.

ساد الصمت كما تسود السماء ليلًا بسوادها على البحر، هو فهمها فهمًا دقيقًا، لكنها لم تكن بحاجة إلى الفهم، كانت بحاجة إلى اتفاق.

قالت بعد برهة:

- أتعرف؟ هذا الذي بيننا، ليس حبًا يليق بالثرثرة. إنه من النوع الذي يفسده الكلام الكثير.

رفع عينيه نحوها، كأنه يسمع صوت قلبه يتكلّم على لسانها، وسأل:

- ماذا تقترحين؟

قالت بهدوء، مثلما تعلن طقوسًا مقدَّسة:

- لا رسائل كل يوم، لا أخبار، لا تفاصيل مكرَّرة. نترك مساحة للحنين، للغموض، للاشتياق أن يعيش طويلًا.

صمت مشاري كما كان يكثره في هذا اللقاء، ثم قال:

- وهل الحب يحتمل كل هذا البُعد؟ اسمكِ معناه الأمل كما أخبرتِني أول مرة، عندما سألتكِ: ما معنى اسم إسبيرانزا؟ كان جوابكِ: اسمي اسم إسباني، لأن أمي درست في إسبانيا وتعلّقت بالأسماء والمدن هناك، ومعناه الأمل. فلا تقطعي عنّي الأمل بعدما وجدتكِ يا إسبيرانزا.

أجابت:

- ليس بُعدًا، إنه طريقة كي لا نُنهك الشعور يا مشاري، سأكون حاضرة مثلما ستكون أنت حاضر لأجلي.

ثم بعد لحظة صمت أخيرة، قالت بصوت لا يرتجف:

- رسالة واحدة في الأسبوع تكفي. واختر يومًا لا تخبرني به، دعني أترقَّبك سبعة أيام، وألتقيك في واحدٍ منها دون أن أعرف متى.

رسالة واحدة، تُحيي القلب من جديد.

قد تعترض الإنسان لحظات يَعجز عن فهم مغزاها، فيُسلّم إنها مستسلم القلب، مطمئنّ النفس، مؤمنًا أنّ الله يُخبّئ له في أيامه زينة أبهى، ونصيبًا أجمل مما رأى وفقد.

عاد مشاري إلى بيته، كمن يعود من معركة لا يعلم إن كان قد خسرها أم نجا منها!

وقف أمام الباب طويلًا، لم يمد يده إلى المفتاح، ولم يطرق الجرس.

كان ينتظر شيئًا لا اسم له..

ربما مكالمة تُعيد ترتيب المسافة بينه وبينها، وربما معجزة تؤجّل المواجهة التي لم يكن مستعدًا لها.

كان يعرفها منذ عام ونصف، لكن لم يرَ وجهها إلا هذا اليوم، ولم يسمع صوتها من قبل، ومع ذلك، لم يكن بينهما ما يُشبه الغرباء.

كانت رسائلها لا تُقرأ كرسائل عادية، إنما تُفكّ كأنها أحجية، كلُّ حرف فيها موارب، وكلُّ فاصلة تُخفي خلفها شيئًا لا يُقال.

كان يشعر أحيانًا أنها لا تكتب له، إنما تُجرّده كما فُكّت شِفرة "إنيغما" في الحرب، ببطء، وصبر، ودهشة، وألم!

ولم يكن ذلك عجيبًا في نظره، فهي لم تكن تشبه أحدًا، لا في طريقتها، ولا في حضورها الصامت.

كانت تمشي في الحياة كما تمشي الفكرة الغامضة في عقل الفيلسوف، لا تُمسَك، ولا تُنسى.

تُحبُّ دون أن تقول، وتغضب دون أن تجرح..

لكنها حين تسكت؟ كانت تُحدث في روحه ضجيجًا لا يُحتمل.

لم تكن تكره أحدًا، لكنها لا تتشبث بأحد..

تملك فلسفة خفية، على الرغم من أنها لم تبلغ الخامسة والعشرين من عمرها بعد.

كأنها تؤمن أن التعلق عبءٌ، بل تؤمن قطعًا أنها إن تعلقت بشيء؟ لن تستطيع أن تنارته في قلبها أبدًا..

حتى عندما حدَّثته عن فقد أختها -غادة- لم يكن حديثها بكاءً، بل أشبه باعتراف بارد من شخص قرأ النهاية قبل أن تبدأ الرواية.

وبعد أن رأى مشاري شخصية إسبيرانزا على الحقيقة، تعلَّق بها كما لو أنها آخر امرأة بهذا الكون.

فالأنثى الذكية، لا يغلبها أحد، تسير مُنتصرة، إلا عندما تحبُّ أحدًا.

مسك مشاري مقبض باب المنزل الفضّي، باب بيته الذي لم يغيِّره أبوه منذ سنينٍ طِوال، لكنه قبل أن يدخل، لمح فتاتان تركضان على استحياء في الحي، ملامحهما مألوفة كأغنية قديمة، ولم يلبث مستغربًا حتى تذكر وجهيهما على الفور!

كانتا من بنات الجيران، اللتين اعتاد أن يلعب معهما في صغرهم، لكنَّ السنين قد مرت كثيرًا، وهذه ليست لعبة كما كانت، ولا الوقت وقت

لهو، بعد أن انتصفت الساعة ليلًا، فالركض في هذا الوقت ليس تمرينًا، والحقائب التي على ظهورهما ليست للمدرسة!

شيء ما في المشهد أيقظه، كأن الزمن انقلب عليه فجأة، فركض إلى سيارته بدافع لا يعرف تفسيره، كأن الماضي استغاث، وهو بحكم العِشرة لم يستطع أن يتجاهل النداء!

لم يلحقهما ركضًا على قدميه كما كان يفعل في صغره، بل يراقبهما من وراء زجاج، وفي قلبه شيء لا يستطيع تسميته. فهو يعرفهما حقَّ المعرفة..

جنى ورغد.

بنتا الجيران، اللُّتان تشارك معهما ذات يوم لعبة "الغميضة" في الفرجان الضيقة، ثم افترقت بهم الأيام دون وداع.

كان يراقبهما من بعيد، كأنه يخشى أن يوقظهما من القرار الذي اتخذاه بصمت، فبات يمشي خلف خوفهما أكثر مما يمشي خلف خطاهما، لكنَّ الغريب، كيف لهما أن تسيران بسرعةٍ في منتصف الليل؟ وتتلفتان بخوف؟ وتتشبثان ببعضهما كما لو كانتا تجهلان الطريق؟

لم يكن في شكٍّ، هما في طريق الهرب، لكنَّ الهرب من ماذا؟

اقترب بسيارته حتى صار بمحاذاتهما، أنزل الزجاج ونادى:

- جنى! جنى..

نظرت إليه باستغراب، كأنها تراه من حياة سابقة، ثم قالت، بصوت متماسك لكنه متحفظ:

- ماذا تريد؟

- هل يمكنني التحدث معكِ؟

لم تجبه، فقط استمرّت في المشي، لكنه أصرَّ قائلًا:

- فقط دقيقة.

سكتت، كأنها تفكر في تكلفة الوقوف..

ثم قالت:

Tme/books210

- ماذا؟

مدَّ يده وهو يتحسس الهواء البارد خلف النافذة، وقال:

- إلى أين أنتما ذاهبتان؟

قالت جنى وهي تحاول أن تسيطر على شعرها من سرعة الرياح:

- لا يخصُّك.

- بل يخصُّني، أنتما مثل أخواتي!

شعرت جنى لوهلة أنها تملك خيارًا لأول مرة منذ زمن، أن هناك أخًا، لا من الدم، إنما من النُبل والشهامة، فقالت بعدما نظرت بعيدًا، كأنها تخجل من الصراحة:

- لا نعلم أين سنذهب، لكنّ البيت لم يعُد بيتًا.

- لماذا؟

اقتربت رغد منها بعد أن رأت عجز أختها الكبيرة جنى عن الحديث، فقالت رغد وهي تستلم مهمة الصراحة:

- بسبب أبي، لأنه لا يعود إلا وهو محمّل برائحة المسكرات، ولا ينتهي الليل دون أن يُفرغ غضبه فينا. كل يوم ضربة، كل يوم صراخ، وكل يوم نكبر فيه عمرًا، حتى تأكدنا أن وفاة أمي لم تكن صدفة، إنما بسبب من سمَّيناه أبي، فهو لا يتعاشر أبدًا!

أخذ الصمت مفهومه بعد الذي سمعه. فكان أبلغ من الكلمات، أو المواساة، لم يتعلم في حياته كيف يردُّ على هذه الحقيقة، لكنه مثلما وجد نفسه يلحق بهما، وجد نفسه في هذه اللحظة يعتصر بالتفكير حتى أتته فكرة لا يعلم صوابها، فقال:

- لديّ خطة..

قالت جنى بعد أن كانت تتأفف:

- ما الخطة؟

قال:

- تعودان معي الآن، وأعطيكِ رقمي، إذا لمستما منه شيئًا مما يفعله دائمًا، فقط أرسلي إليّ رسالة واحدة، وسأتصرَّف فورًا.

لم تكن جني لتُصدِّق، لكنها لم تكن أيضًا تمتلك رفاهية التشكيك.

ترددت.. نظرت إلى رغد.. ثم إلى الأرض.

ثم إلى وجهه، كأنها تقرأ نيَّته، وقالت بهدوء:

- موافقة.

فركبتا السيارة، دون كلام. جلست بصمت، وجلست أختها رغد بجانبها، وأغلقت الباب مثلما يغلق الفصل نفسه دون نهاية.

وعاد مشاري بهما إلى المنزل كما يعود أحدهم بشيء لا يعرف قيمته، لكن يخشى عليه أن يُكسر.

وعندما عاد إلى غرفته، جلس طويلًا أمام شاشة الهاتف، ينتظر رسالة لا يتمنَّاها، لكنه يخاف من ألا تصله أبدًا!

لم تأتِ الرسالة، ومع ذلك، بقي الهاتف مكانه، يخاف أن تصحو في منتصف الليل، وتتذكَّر أن هناك من ينتظرها، لكنها لم تفعل.

فغلبه النعاس أكثر ممَّا يحتمل، ونام وهو ينتظر.

تنام وأملُكَ معلقٌ في الغد..
فتصحو وفي داخلك زمن، لم تعد تعرفه!

t.me/books210

لم يكن الصباح كما اعتاد مشاري أن يراه!

يدٌ خشنة هزّته من غفوته، وصوت والده اخترق جدران الحلم:

- انهض! ثمّة مصيبة تنتظرك في الأسفل!

فتح عينيه، ونظر إلى والده، فوجد في وجهه قلقًا لم يألفه من قبل!

قال مستفهمًا:

- ما الخطب؟

- رجالٌ تجمّعوا عند باب البيت، يسألون عنك!

نهض باضطراب، وارتدى ثوبه، ومضى مع والده دون أن يسأل، فالأسئلة الكثيرة تُخيف، والصمت أحيانًا أحنُّ من الإجابات، فأخذ ينزل السلّم بخُطى حذرة، وفي عقله ألف علامة استفهام.

كانت وجوه الرجال تنتظره، ووسطهم شيخ طاعن في العمر، عيناه تشبهان الليل إذا غضب.

قال بصوتٍ خافت، مشحونٍ كالرعد:

- أأنت مشاري؟

ردّ بهدوءٍ مضطرب، وهو يرمق الرجال بالنظر:

- نعم، أنا هو.

سكت الشيخ للحظة، ثم ألقى كلمته من شفتيه المتشققة من قسوة الزمان:

- والله، إن دم جنى لن يضيع هدرًا!

تجمَّدت السماء في عروق مشاري، والتفت حوله كمن يبحث عن براءته في وجوه لا يعرفها، وتمتم بذعر:

- أي جنى؟ عن أي شيء تتحدَّث؟ من أنتم؟

تقدَّم شابٌ من خلف الشيخ، وفي صوته قهر دمٍ لم يبرد بعد:

- جنى، ابنة جيرانك، التي قتلتها ببشاعة، وأنا ابن عمها.

والله، لن يُدفن دمها، ثم ننسى. دمُها برقبتك!

حاول مشاري أن يفهم ما يحدث، أراد أن يفتح فمه، أن يقول أي شيء، لكن الكلمات خانته، مثلما يلتصق الصمت الغليظ بلسان من عجز عن التبرير وهو بريء.

تقدَّم الشاب خطوة أخرى، وكان في عينيه شرر لا يُخطئه من جرَّب الغضب طويلًا، رفع يده كأنَّه يستعدُّ للقصاص، لكن يدًا أخرى أمسكت بمشهد الغضب فجأة!

كانت يدًا نظاميَّة، باردة، لا تعنيها العائلة ولا الدم، بل فقط، الورق الموقَّع.

ظهر رجال الشرطة من خلف الجمع، دون مقدِّمة، ودون سؤال، فتقدَّم أحدهم وسأل باقتضاب:

- هل أنت مشاري بن علي؟

أومأ مشاري برأسه، ولم يكن في حركة عينيه سوى سؤالٌ لا يقال.

فقال الضابط:

- تفضل معنا.

لم يعلّق أحد، ولم يتحرّك حتى أبود. فالجميع اكتفى بمشهد النهاية دون أن يسعى أحد لتفريغ غضبه أكثر.

مضى مشاري بينهم، كأنّه يسير في جنازته، لا إلى قسم شرطة!

ولم يكن يعلم، أيدفع ثمن شيء فعله؟ أم شيء لم يكن له يد فيه.. سوى أنه كان في المكان الخطأ، وفي الوقت الخطأ.

تحرّكت سيارة الشرطة، وانطلق بها الضابط في الطريق المجهول، ومشاري في مقعده الخلفي واجمٌ لا ينبس. كأنّ اللسان قد ذاب في مرارة الذهول، كأنّ القلب ما عاد يضبط دقّاته إلا على نغمة واحدة: "لستُ مذنبًا، ولكني وحدي في هذا البلاء".

فمدّ طرفه من نافذة الزجاج، ورأى أباد واقفًا حيث تركه، لا يتقدّم، ولا يتأخّر، لكنّه وقف وقفة من خُلع من قلبه شيء لا يُعاد، وكانت في عينيه نظرة، لو رآها حجر، لبكى!

فأطرق مشاري رأسه، ولم يشعر بنفسه إلا والدمعة تخذله، فقال بصوتٍ مرتفع:

- لماذا؟ لماذا؟

فردّ عليه الضابط:

- في التحقيق ستعرف يا مُجرم!

كيف حالك؟

هل الأيام ابتسمت، أم ما زالت تخذلك؟

مركز الشرطة
الساعة 11:10 صباحًا

دخل مشاري إلى عالمٍ لا يُشبه الحياة، جدرانه باهتة كوجهٍ أنهكته السنين، وهواؤه ثقيل كليلٍ بلا قمر.

كانت الإضاءة الخافتة تُلقي على المكان ظلًّا باردًا، يزيد من وحشته، فلا يسمع سوى خفق قلبه وصافرة أذنه التي ولدتها رهبة اللحظة.

أجلسوه على كرسي معدني أمام طاولة باردة. ثم كبّلوه إليها كما يُكبل المجرم الذي لم يترك لأحد شكًّا في ذنبه.

ظلّ ساكنًا، وهو يحدّق في لا شيء، يحاول أن يلملم أنفاسه، لكن ضربات قلبه كانت أوسع من صدره.

مرّت دقائق طويلة لم يتحرّك فيها إلا صوته الداخلي، يُذكّره بصديقه المقرّب "أحمد"، المحامي الذي يعرف خبايا القانون كما يعرف خطوط كفّه!

لكن كيف يصل إليه، وقد جُرّد من هاتفه ومن أي وسيلة للنداء؟

ولم يلبث في سوء الأحداث يفكر حتى سمع خطواتٌ ثقيلة تقترب من الباب، لا تُشبه وقع أقدام رجل واحد، ثم فُتح الباب ودخل رجلان في ثياب الدولة الرسمية.

تقدَّم الأثقل منهما قائلًا بنبرة تحمل من الرسمية بقدر ما تحمل من الصرامة:

- أنا المحقق محمد، وهذا زميلي حسن، هل تعرف لماذا أنت هنا؟

رفع مشاري رأسه بتردد، وقال:

- لا، لا أعرف.

ابتسم حسن بسخرية، ثم انحنى قليلًا فوق الطاولة، يثبِّت نظره في عيني مشاري، وقال:

- لستُ معنيًّا بما فعلتَ كثيرًا، فقد تعاملت مع قتلة ومجرمين من قبل، لكن جريمتك هذه، استفزتني لسبب واحد فقط.

تقلَّصت ملامح مشاري، وشعر برعشة باردة تسري في أطرافه، وسأل بصوت مضطرب:

- جريمتي؟ أنا... قاتل؟

جلس حسن في مواجهته تمامًا، وضرب سطح الطاولة براحته ضربةً قصيرة لكنها عميقة الأثر، ثم قال:

- كيف تجرؤ أن تُصوِّرَ مقطعًا وأنت تقتل الضحية؟

ثم التفت إلى محمد وأضاف:

- أنا رزميلي لم نجد فيك حتى ذرة من رحمة، ألم تُفكِّر في حق الجيرة؟ تقتل ابنة جارك، وتوثِّق ذلك؟ أي قلب هذا الذي تحمله؟

فتح مشاري عينيه على أشدّها من هول ما يسمع، لم يتماسك أو يرتّب حديثًا كما يحبُّ أن يرتبه، فقال وجسمه أبرد من هواء يناير:

- أنا...

لكن الباب انفتح فجأة، ليقتحم المكان صوتٌ يعرفه جيدًا، صوت لا يشبه أصوات هذا المكان، ولا يليق بالعتمة التي فيه:

- هل تحققان مع بريء في المكان الخطأ؟! من أذن لكما أن تحوّلا مركز الشرطة إلى مسرح عبث؟!

ارتبك المحقق محمد، فاعتدل في وقوفه، وأخذ يفرك راحة يديه ببعضهما، وهو يحاول طرد التوتر الذي باغته، فقال:

- من أنتِ؟ وبأي صفة تدخلين علينا؟

تقدّمت بخطى ثابتة، وحدّة العزم تتشكّل في ملامحها، فقالت بلهجة حاسمة:

- أنا المحامية إسبيرانزا، أمثّل الأستاذ مشاري بموجب توكيل رسمي.

مدّت بطاقة هويتها إلى المحقق حسن، فتفحّصها سريعًا، ثم تبادلا همسًا قصيرًا، قبل أن تقول:

- أريد التحدث مع موكّلي على انفراد، لو سمحتما.

قال المحقق محمد بلهجة متحفظة:

- لديكِ دقيقتان، ثم سنحوّله مباشرة إلى النيابة.

خرج الرجلان، فجلست أمامه بسرعة، وعيناها تمسحان تفاصيله القلقة.

لكنه ظلَّ واجمًا، يلاحق بعينيه أسئلته قبل أن يلفظها، ثم قال:

- كيف عرفتِ أنني هنا؟

ابتسمت ابتسامةً قصيرة تحمل في طيّاتها طمأنة، وقالت:

- في الأمس تركتَ الموقع المباشر مفتوحًا لي، ألا تذكر؟ ففتحتُه من باب الفضول، لكنني صُدمت حين وجدتُك في مكان لا يجب أن تكون فيه!

قال بيأس متعب:

- أنا بنفسي لا أعرف ما الذي يحدث، يا إسبيرانزا، هل أنتِ فعلًا أمامي!

- لا يهمُّ الآن..

أخرجت من حقيبتها ورقة صغيرة مطويّة، وضعتها أمامه، وقالت:

- سنلتقي في النيابة، اقرأ ما فيها واعمل به..

ثم نهضت وطرقت الباب، وقبل أن يفتحوه، قال مشاري بصوتٍ غلبته الرجفة:

- أنا بريء.

هزّت رأسها بابتسامة قصيرة، دون أن تنطق، ثم غابت خلف الباب، تاركةً خلفها ثقلًا من الأسئلة، وأملًا لا يزال يتنفس.

***

بعد نصف ساعة

لم يكن الطريق إلى النيابة سبيلًا مطروقًا، بل كان جسرًا إلى وادٍ مظلم لا يُرى له قاع.

جلس مشاري في المقعد الخلفيّ داخل سيارة الشرطة، والأغلال تحيط بمعصميه إحاطة الوحش بفريسته، ثم أُغلق الباب بعنف، فارتجّ قلبه قبل أن تضطرب أرجاء المركبة.

سارت العجلات، والمدينة تتراجع خلف الزجاج الغائم، بيوت يعرفها ولا يعرفها، وجوهٌ تمرُّ ولا تلتفت. وأشجارٌ تحرّك أغصانها لتودّعه من بعيد. بدا كل ما حوله ساكنًا في عادته، إلا هو، فقد كان العالم كله يمضي في طريقه، بينما هو وحده ساقط في حفرة لا يعرف لها مخرجًا.

هاجت في رأسه ذكرى عابرة، صورة جنى وهي تلوح بضحكة قصيرة، ظلُّها وهو يراها يومًا تمرُّ أمام بيته، لم يكن بينهما حكاية، فكيف صارت عنوان الحكاية الآن؟

رفع بصره إلى مقدمة السيارة، فإذا السائق جامد النظرات، يخشى إن التفت أن يرى أمامه رجلًا مظلومًا لا مجرمًا. وإلى جانبه شرطيٌّ يقلّب أوراقًا ببرود.

أطبق مشاري عينيه لحظة، فإذا بصدره يضجُّ بنبضه، حتى خُيِّل إليه أن صوته يختلط بأزيز المحرِّك. وأدرك أن الطريق، وإن كان قصيرًا في المسافة، فهو أطول من العمر في وقعه، وأن الشمس، وهي معلَّقة في كبد السماء، قد تغدو غريبة باردة!

وكلما ابتلعت السيارة مترًا جديدًا من الطريق، سُلب من روحه يقين، وخُطَّ مكانه سؤال واحد يتردَّد في أعماقه:

"هل أعود يومًا كما كنت؟ أم أن هذه الرحلة قد كتبت خاتمتي قبل أن تُكتب تبرئتي؟".

أحيانًا أعظم جريمة ترتكبها
أن تكون طيبًا تجاه الناس الخطأ!

كلُّ ما تحتاج إليه من مصائب، أن تلقى إجابة..

توقّفت سيارة الشرطة عند باب النيابة العامة، فإذا الصمت يهبط على المكان كستار ثقيل، ثم انفتح الباب فجأة فارتجف قلب مشاري قبل أن تضطرب أوصاله. أحسَّ أن الهواء في الخارج لم يكن أوسع من هواء الداخل، فكلاهما ضيّق على صدره، وخانق لروحه.

مدَّ الشرطي يده إلى ذراعه، وقاده في خطى قصيرة متثاقلة، يجرُّ معها قيوده جَرَّ المناديل على جراح القلب، وقد امتد الممر أمامه طويلًا، أرضه تلمع مثلما تُصقل الأرض برذاذ الثلج، وجدرانه ملساء لا حياة فيها، فعبر المكاتب والأنظار تلتقطه ثم تفرُّ منه سريعًا، حتى إذا بلغ غرفة ضيقة، فيها مكتب عريض يملأ صدرها، أُجلس هناك، ورفع بصره فإذا برجل جليل الملامح، ساكن القسمات، يحمل ملفًّا بنّيًا في يده كما يحمل القاضي ميزانه. رفع الرجل رأسه عن الأوراق، ونظر إليه نظرًا فيه وقار يهيب، وحدَّة تقطع، ثم تكلّم بصوتٍ نافذٍ لا يعرف اللين:

- مشاري، أنت متهم بقتل جنى بنت جيرانك، لدينا فيديو، ولدينا شهود.

ثم توقف لحظة، كأن الصمت جزء من التحقيق:

- ماذا تقول؟

تردّد الكلام في رأس مشاري أكثر مما سمعه في أذنه، لم يجب، لأن إسبيرانزا كتبت له في الورقة:

"لو تمّ تهديدك، لا تُجب، أترك الموضوع بين يدي بعد كل سؤال، تذكر ما أخبرتك به".

لكنّ صدره قد انقبض، وعيناه تهربان بين الوجوه كمن يبحث عن مرفأ يصدّق أن قلبه لم يعرف الدم.

ابتلع ريقه، وانطلق صوته ضعيفًا، متقطعًا، فلم يعد يستطع امتلاك الصمت أكثر:

- أنا، لم أفعل..

ضحك أحد المساعدين ضحكة قصيرة، اخترقت المكان كصفعة، فعاد الصمت أثقل مما كان.

عندها تقدمت إسبيرانزا خطوة، وقالت بثبات:

- موكّلي بريء، ولن يجيب عن أي سؤال دون وجودي.

رفع وكيل النيابة حاجبه، ومال قليلًا إلى الأمام:

- وهل لديكِ ما يثبت ذلك؟

- ليس بعد، ولكنّي سأثبته.

التفتت إلى مشاري لحظة واحدة، نظرة خاطفة لا تحمل كلامًا، لكنها تقول بأعينها: تماسك.

ثم مدّت يدها، فأعطاها وكيل النيابة الملف بإذن رسمي، وأخرجت أوراقه بين يديها، وكانت الصفحات تفوح برائحة الحبر القديم،

وأصوات تُطارد الحبر، ساعة الجريمة.. صورة مشوشة لرجل يختبئ في الظلام، شهادة امرأة أقسمت أنها رأته يركض تلك الليلة.

كل ما فيها ضده، ومع ذلك، كان في عينيها شيء لا يشبه اليأس، شيء بدا كأنه يعرف الطريق قبل أن تخطو إليه.

فأمر وكيل النيابة بإعادة مشاري إلى التوقيف المؤقت، بعد أن سلَّم الملف إلى إسبيرانزا.

كانت إسبيرانزا تمشي في الممر، وخطواتها تسبق ظلَّها، توقفت عند النافذة، وأخرجت الملف، ثم أخذت تفتح الصفحات بسرعة عينٍ تبحث عن عثرة.

توقفت عند سطر وحيد:

"امرأة ترتدي عباءة سوداء، وعلى معصمها الأيمن وشم صغير على هيئة طائر".

رفعت رأسها، وعيناها تلمعان. ثم أعادت قراءة السطر مرة أخرى وما كانت تزيد في القراءة حتى توقفت للحظة. وبدا كأن شيئًا غير مرئي عَبَرَ بين حاجبيها، ثم أغلقت الملف بهدوء، وأمسكته كما يُمسك المرء بشيء لا يريد لأحد أن يراه!

واصلت السير نحو الباب، وخطواتها لم تعد كما دخلت..

ثم خرجت من باب النيابة وهي تضغط الملف تحت ذراعها، لم تمشِ كثيرًا قبل أن تقف فجأة..

فتحت الملف على الصفحة الأخيرة، وهامت تحدّق في السطر الأخير طويلًا، ثم أطبقته، كأنها حفظت شيئًا فيه، ثم فتحت هاتفها، وأخذ ترسم رقمًا تتصل به، وجاءها الصوت:

- من؟

- الأمر عاجل، أريد أن أراكِ حالًا!

- أين، ومن أنتِ؟

- مقهى EMLS بعد نصف ساعة. ستعرفين كل شيء

***

وصلت إسبيرانزا إلى المقهى قبل الموعد بدقائق، وجلست على طاولة في الركن البعيد، ظهرها للجدار، ووجهها يطلُّ على الباب.

كانت أصابعها تعبث بحافة الملف، تتوقف أحيانًا عند الصفحة التي تصف المرأة:

"عباءة سوداء واسعة، لم يظهر من ملامحها شيء، سوى يدها اليمنى التي وُشمت بطائر صغير".

أعادت القراءة مرارًا، وكل مرة يزداد يقينها، العباءة لم تكن دليل عمر، بل قِناع!

الوشم هو الذي خانها، بخطوطه الدقيقة، وألوانه الحيَّة لا تليق بامرأة جاوزت العشرينيات بكثير.

ثم خطر في بالها ما كانت جنى تردده دائمًا: "لا أرافق إلا من يفهمني، ومن هم في عمري".

رفعت عينيها إلى الباب، وعقلها يعيد ترتيب المشهد، المرأة ليست غريبة عن عالم جنى، بل منه!

وبعد لحظاتٍ طال امتدادها، انفرج باب المقهى عن امرأةٍ ولجت بخطًى مترددة، تُحصي بعينيها المسافة بين الباب والطاولات قبل أن تجرؤ على قطعها.

وكانت عباءتها السوداء تُحيط بجسدها الغضّ إحاطةً تُواري أكثر مما تُبدي، ومع ذلك بان للعين أنّها في مطالع شبابها، بعينين تلمعان ببريق حائر، ونظرةٍ تبحث عن شيءٍ لا تودُّ العثور عليه.

غير أنَّ إسبيرانزا لم يَأسرها ذلك المظهر بمقدار ما استوقفها الوشم الدقيق على معصمها الأيمن. فأشارت إليها إشارةً وديعة، ورأت المرأة من بعيد إشارة إسبيرانزا وتلويحها، فمضت نحوها على كُره، ثم جلست صامتة، وأرسلت طرفها بنظرة عجلى إلى الملف أمام إسبيرانزا، قبل أن ترفع عينيها إليها في ارتباكٍ خفيٍّ..

ابتسمت إسبيرانزا ابتسامة قصيرة، لا ود فيها ولا عداء، وقالت:

- أشكركِ على قدومكِ بهذه السرعة.

لم تجب المرأة، وإنما وضعت حقيبتها في حضنها، وشبكت أصابعها حولها، لكنها تحوم حول سؤالٍ واحد، فقالت:

- كيف عرفتِ رقم هاتفي؟ ومن أنتِ، أعتقد بأنني رأيتكِ من قبل؟

أمالت إسبيرانزا رأسها قليلًا، وهي تقول:

- قبل أن أطرح أو تطرحين أي سؤال، أريد أن أعرف، كيف حالك بعد تلك الليلة؟

تحركت المرأة باضطراب، ثم قالت بصوت منخفض:

- لستُ من تحتاجين إلى سؤاله عن تلك الليلة.. أريد أن أعرف الإجابة الآن.

- أنا إسبيرانزا، محامية مُتهم اتُّهمَ بقضية لا شأن فيها، ورقمكِ حاضرًا في ملف القضية، لكن قبل أن يتمَّ استدعاؤك إلى النيابة، أريد الحقيقة.

ثم أخذت تفتح الملف ببطء، وأشارت إلى السطر الذي يحوي الوصف: "امرأة ترتدي عباءة سوداء، على معصمها وشم طائر".

ثم رفعت نظرها مباشرة إليها، وسألت:

- هل هذا الوصف يخصُّكِ؟

كانت تنظر المرأة إلى إسبيرانزا نظرةً جامدة، ليس فيها أيُّ تفسير، فقالت بهدوء:

- ربما، وإن كان كذلك، ماذا تريدين أن تعرفي؟

انحنت إسبيرانزا إلى الأمام، وخفَّضت صوتها:

شوهدتِ مع جنى قبل موتها بساعتين، أريد الحقيقة يا سارة.

ارتسم ظلُّ حزنٍ في ملامح سارة، صاحبة الوشم، ونطقت ببطء، كمن ينتقي كلماته:

- الحقيقة، أن جنى لم تكن تريد العودة إلى بيتها.

ظلّت إسبيرانزا تحدّق في عينيها، تنتظرها أن تُكمل ما تجهله هي، ثم سادت لحظة صمت، لم يُسمع فيها سوى صوت الملاعق وهي تطرق أطراف الفناجين.

أغلقت إسبيرانزا الملف، وأسندت كفيها فوقه، وقالت بنبرة ثابتة:

- وماذا حدث بعد أن رفضت العودة؟

تحرّكت سارة في جلستها، وأمسكت بطرف عباءتها، ثم قالت:

- عرضتُ عليها أن تمكث عندي، على الأقل لتتجنب غضب والدها تلك الليلة. لكنها رفضت، وقالت إن هناك شخصًا وعدها أن يساعدها.

ضيّقت إسبيرانزا عينيها:

- من؟

هزّت سارة رأسها، وفي عينيها تردُّد:

- لم تقل، لكنها ابتسمت بطريقة جعلتني أشعر أنها تثق به أشد الثقة.

انتصب ظهر إسبيرانزا في مقعدها، فمدّت يدها إلى الملف من جديد، وأخرجت صورة مأخوذة من الفيديو المزعوم، الصورة كانت مشوشة.

والظلام يبتلع الملامح، لكن هناك ظلًّا أنثويًّا يمرُّ في الخلفية، بكار يختفي اولا حركة اليد السريعة.

أدارت الصورة نحو سارة، وسألتها:

- أهذه أنتِ؟

ارتجفت أصابع سارة وهي تمسك الصورة، ثم وضعتها ببطء على الطاولة، وقالت بصوت خافت:

- نعم، لكنني لم أرَ ما حدث بعدها.

انحنت إسبيرانزا إلى الأمام، ونبرتها ازدادت حدَّة:

- إذًا، كنتِ في مكان الجريمة!؟

حاولت سارة أن تهرب بابتسامة مزيفة، وهي تقول:

- كنت هناك، لكنك لو سمعتِ ما سمعته، وعرفتِ ما عرفته تلك الليلة.. لما ظننتِ أن ما ترينه في الفيديو هو الحقيقة.

تراجعت إسبيرانزا في مقعدها، وأسندت ذراعيها إلى الطاولة، وعيناها لا تفارق ملامح سارة:

- إذًا، أنتِ تؤكدين أنك كنتِ هناك، قبل موت جنى بساعتين.

أومأت سارة برأسها بثبات، ثم قالت:

- نعم، لكنني لم أكن أعرف من هو مشاري أصلًا، ولا حتى اسمه. إلا بعد أن انتشر الفيديو، وصار الجميع يقول: "هذا ابن علي".

أتى النادل مُقاطعًا:

- هل أجلب لكما شيئًا غير الذي تم طلبه؟

قالت إسبيرانزا على عجل:

- لا شكرًا.

ثم أعادت وجهتها إلى سارة، وهي لا تريد أن يضيع التحقيق الودّي:

- وكيف يجزمون أنه هو؟

- لأنهم رأوه في كاميرات الحي، ليلة الحادثة، يعيد جثى ورغد إلى البيت، أما أنا، فلم أرَ ذلك إلا بعد الحادثة بساعات، حين بدأت الألسنة تلوك الحكاية.

انحنت سارة قليلًا إلى الأمام، أخذ صوتها ثقة أكبر، فقالت وهي تمسك بخيط البراءة:

- ما في الفيديو ليس مشاري، من رأيته تلك الليلة أطول قامة، وأعرض منكبين، ولا يحمل الطريقة نفسها في المشي، لأنني رأيت مشاري قبل بضع سنوات أمام بيته، لا أذكر بأنه يحمل أوصاف من في الفيديو.

صمتت إسبيرانزا وهي تحفظ كلَّ ما تسمع، بينما سارة تتابع حديثها:

- ثم إن اللحظة التي التُقط فيها المقطع، كانت بعد أن افترقتُ عن جني، أنا غادرت قبل ذلك بوقت. ولو كنت بقيت، لظهرت الكاميرات وجهي، لا ظلّي فقط.

فتحت إسبيرانزا الملف من جديد، وأشارت بإصبعها إلى صورة مشوشة:

- وهذه اللقطة؟ ألا تكفي لتضعك في قلب الشبهات؟

- التشويش ليس إثباتًا، لأنه لا يظهر سوى عباءة، والعباءة يملك مثلها مئة امرأة في الحارة. لكن وشمي، لا أحد يملكه سواي، ولو أراد القاتل أن يضلل، يكفي أن يستعير عباءة تشبه عباءتي، ويترك الكاميرا تلتقط ما تريد.

ثم أخفضت رأسها، وقد نالت منها الشجاعة حتى تغلغلت فيها، فقالت:

- أنا واثقة، أن ما في الفيديو لم يكن صدفة، بل كان مقصودًا.

ردّت إسبيرانزا بسؤال:

- مقصود؟ من قِبل مَن؟

انخفضت نظرات سارة نحو صبغ أظافرها المتقشّر:

- شخص يعرف جنى، ويعرف أن بينكما جار اسمه مشاري، شخص أراد أن يُظهره كأنه هو القاتل، ليُبعد النظر عن القاتل الحقيقي.

- وهل تعرفين هذا الشخص؟

ابتسمت سارة ابتسامة بلا بهجة، وقالت:

- لا، لكنّي أعرف شيئًا واحدًا، جنى لم تكن تخاف من هذا الشخص، بل كانت تثق به إلى حدّ الجنون، وهذا أخطر من الخوف نفسه.

ظلّت الجملة الأخيرة تتردد في أذن إسبيرانزا، ثم وضعت يدها على الملف، وأحسّت أن بين السطور ظلًّا آخر، ظلُّ من يكتب الحكاية من وراء الستار، ويقود الجميع حيث يريد.

رفعت نظرها إلى سارة، وسألت:

- إذا تذكّرتِ أي شيءٍ آخر، أي تفصيل مهما بدا صغيرًا، اتصلي بي فورًا.

- المهندس.

ما إن سمعت إسبيرانزا الاسم حتى توقفت، ثم أخذت تسرق النظر نحوها، وقالت:

- ماذا؟

- لا أعلم، اسم سمعته كثيرًا على لسان جنى.

وقفت إسبيرانزا بعد أن سجلت الاسم بهاتفها، ثم قالت:

- يجب أن أذهب، لكن أي شيء يخدم القضية، لا تترددي في إخباري يا سارة.

ثم انصرفت من المقهى، والريحُ اللاهبة في مساء هذا اليوم تُلطم وجهها، تُذكّرها بأن للأقدار قسوةً لا تُحتمل، وللقلوب رهبةً مما تُدرك.

مشت بخطى يسبقها القلق قبل أن تسبقها قدماها، فما سمعت على لسان سارة كان خطيرًا بقدر ثباتها في أثناء الحديث، إلى أن وقفت عند مركبتها، وتناولَت مقبض الباب بيدٍ تائهة، لكن القدر اعترضها حين ظهر أمامها رجلٌ طويل القامة، تفيض هيبته مهابةً ورزانة، وتكسوه بدلة رمادية تزيد ملامحه جلالًا وغموضًا. كانت عيناه تُلاحقها بنظرة ثابتة، لا تحمل فضولًا عابرًا ولا إعجابًا عاديًا، بل رسوخًا يوقظ في قلبها ذكرى قديمة ترفض أن تخرج إلى الوعي.

فابتسم ابتسامةً واهنة، فيها من التحية ما يُطمئن وفيها من الأسرار ما يُربك، ثم أدار ظهره ومضى، تاركًا خلفه أثرًا لا يُمحى.

أما هي فجلست في مقعدها بعد أن مضى، وقد أُثقلت بوجهٍ يتردّد في خاطرها بلا ملامح واضحة، وذاكرةٍ تبحث في صمتها عن موطئ لتلك النظرة. أدارت المحرك، وانطلقت، غير شاعرة أن الطريق الذي تسلكه اليوم مرسومٌ ليعود في الغد ويلتقي بطريقه هو.

مأساة سورة نجم
وآینده برای انسان بجز
حاصل تلاش او نیست
AMIN

أنا معك..

مهما ستسلب الحياة من صدورنا قلوبنا.

في اليوم التالي خرجت إسبيرانزا من المقهى، وخطواتها تسابق أنفاسها، فانطلقت بسيارتها، حتى إذا بلغت بيت الجارة التي شهدت ضد مشاري.

وقفت أمام الباب، طرقته ثلاثًا، فانفتح ببطء، وخرجت منه امرأة في الخمسين، يطلُّ من عينيها تحفظٌ وحذر.

ابتسمت إسبيرانزا ابتسامةً وديعة، وأبرزت بطاقتها وقالت:

- أنا المحامية في قضية مشاري بن علي، جئتُ لأسمع شهادتك بلسانك، لا بلسان الورق ولا المحاضر.

ترددت المرأة قليلًا، ثم فتحت الباب، وأشارت إليها بالدخول. جلستا في صالة يغمرها عبق القهوة، ثم قالت المرأة مباشرةً:

- لقد رأيته بعيني، كان يركض أمام بيت جنى ليلة مقتلها.

مدَّت إسبيرانزا يدها، وأخرجت صورة الفيديو، ثم وضعتها أمامها، وأشارت إلى الظلِّ في الخلفية:

- وهذا؟ هل كنتِ تعرفينه قبل أن ينتشر المقطع؟

تلعثمت المرأة وهي تحدِّق في الصورة طويلًا، ثم رفعت كتفيها وقالت:

- لم أعرفه، ولكن حين انتشر الفيديو، وتحدث الجيران باسمه، أيقنت أنه مشاري، فصدَّقت.

مالت إسبيرانزا بجسدها نحوها، وعيناها معلقتان على وجهها:

- إذًا لم تنطقي اسمه إلا بعد أن سمعتِه من الآخرين؟ فبأيِّ عينٍ رأيتِ إذًا؟

سكتت المرأة، ثم حمحمت وهي تنزع نظارتها البُنيَّة:

- بعد أن سمعت الاسم، شعرت أن من رأيته هو مشاري.

تنفست إسبيرانزا بعمق، ثم قالت بصوت يشبه صوت الغضب الثابت:

- "شعرتِ" لا تكفي لأن يُدان رجل، ولكنها تكفي لأن أبرّئه.

ثم نهضت وهي تجمع أوراقها، وقبل أن تغادر ألقت كلماتها الأخيرة:

- الحقيقة ليست ما يُقال لك، بل ما ترينه بعينك، وأنتِ لم ترِي شيئًا!

فخرجت إلى الشارع وقد كانت الشمس تصبُّ نارها على الإسفلت، لكن نار عقلها أشد لهيبًا من كل حرّ الصيف. توقفت، ثم فتحت الملف من جديد، وقارنت بين صورتين: إحداهما من الفيديو، والأخرى من كاميرا البيت قبل ساعتين من الحادثة. رفعت الورقتين بجانب بعضهما، فإذا الظلُّ واحد، والوشم واحد، غير أنَّ الساعة في الخلفية تخبر بزمنٍ آخر!

تمتمت وهي تضم الورقتين:

- التوقيت، مختلف!

أمسكت هاتفها على عجل، طلبت رقم أحمد، وحين ردّ، قالت:

- علينا أن نراجع التوقيتات من جديد. لقد نصرنا الله بتوقيته!

قال أحمد:

- هل وجدتِ ثغرة؟

فقالت بثقة امتزجت لأول مرة بالفرح:

- ما وجدتُه ليس ثغرة، بل بابًا واسعًا، مفتاحه في يدي الآن.

ثم لم تلبث أن تُغلق الخط حتى تزيَّنت على شفتيها ابتسامة لم تعرفها منذ بدأت القضية. أحست في تلك اللحظة أن مشاري، ولأول مرة؟ بات أقرب إلى الحرية مما كان.

***

دفعت إسبيرانزا باب مكتب أحمد، فرفع رأسه من بين أكوام الملفات، وعيناه تلمعان بدهشة طفيفة.

كان المكتب يعجُّ برائحة الشاي المُعتَّق على النار، وصوت المكيف يملأ الصمت بهسيس خافت.

وضعت الملف أمامه بغير تمهيد، وجلست دون أن تنتظر إذنًا، وقالت بلهجة حاسمة:

- انظر، هذا هو التسجيل الذي يزعمون أنّه دليل، وهذه لقطات الكاميرا قبل الحادث بساعتين.

أخذ أحمد الصور، قرّبها من عينيه، ثم أبعدها قليلًا، وهو يحاول أن يستنبط نصًا خفيًا من وراء كل شيء..

قال وهو يشير بأصبعه:

- هنا.. وهنا... المرأة ذاتها، الوشم ذاته، الظل ذاته.

أومأت إسبيرانزا:

- بالضبط! ولكن لاحظ الساعة في الصورة الأولى، والساعة في الثانية. الفارق ساعتان، ومع ذلك يصرُّون أنّها لحظة الجريمة.

ارتسمت على وجه أحمد ابتسامة نصفها ثقة ونصفها استهزاء، وقال:

- إذًا، التوقيت باطل، والفيديو لا يثبت شيئًا.

مالت إسبيرانزا إلى الأمام وهمست بنبرة حازمة:

- أكثر من ذلك، هذا يثبت أنّ المشهد مقطوع وملفّق. وهناك أمر آخر، الرجل الظاهر في التسجيل ليس مشاري، حركته مختلفة، وبنيته أوسع.

أغلق أحمد الملف بهدوء، وأراح يده فوقه، وقال بثقة:

- إذا أثبتنا هاتين النقطتين في المحكمة، سيخرج مشاري ببراءة لا غبار عليها.

- لا أريد البراءة فقط، أريد أن نعرف من قتل جنى حقًا، وآخذ بحق حبيبي!

رآها أحمد وعيناه تبتسمان، قال:

- متى ستتزوجان؟

ابتسمت وتورَّدت، ثم قالت:

- متى ما شاء الله ذلك.

ساد الصمت لحظة، قبل أن يمدَّ أحمد يده إلى هاتفه ويقول:

- تبدأ بمن شوهدت مع جنى آخر مرة وهى على قيد الحياة.

***

في صباح اليوم التالي
الساعة العاشرة صباحًا
10:09

كان مبنى النيابة يكتسي بهدوءٍ ثقيل، لا يقطعه سوى وقع الأقدام على البلاط اللامع.

جلست إسبيرانزا إلى جانب أحمد في غرفة التحقيق، وكانت أمامهما طاولة خشبية عريضة تتوسطها آلة تسجيل صغيرة، بينما المقعد المقابل شاغر، ينتظر صاحبته.

انفتح الباب ببطء، ودخلت المرأة صاحبة العباءة السوداء، سارة، وخلفها شرطي يرافقها حتى الكرسي.

جلست مترددة، ويدها تمسك طرف عباءتها كما يمسك الغريق خشبةً في الماء.

بدأ وكيل النيابة بصوت هادئ، لكنه مشبع بالرسميات:

- السيدة سارة، تم استدعاؤكِ لأنكِ شوهدتِ مع المغدورة جنى قبل وفاتها بساعتين. هل تؤكدين ذلك؟

رفعت سارة رأسها قليلًا، وصوتها يكاد يختبئ خلف الكلمات:

- نعم، التقيت بها تلك الليلة.

تدخلت إسبيرانزا مباشرة، وقد أخذت نبرتها الثبات:

- هل كنتِ تعرفين مشاري بن علي قبل انتشار خبر الفيديو؟

نظرت إليها المرأة باستغراب، ثم هزّت رأسها نفيًا:

- لم أعرف اسمه من قبل، ولم أرَه إلا مرةً واحدةً، وكانت رؤيا عابرة قبل سنين، عند بيت المغدورة، حتى سمعت الناس يتحدثون أن هذا الشاب هو من ظهر في التسجيل.

سأل أحمد بهدوء:

- ولماذا صدّقوه أنّه هو؟

أجابت المرأة، كأنها تفرغ ما في صدرها:

- لأن أحد الجيران أكّد أنّه رآه تلك الليلة يعيد جنى وأختها إلى المنزل، فظنّوا أن من في الفيديو هو نفسه، لكنّي أؤكد، الرجل في التسجيل ليس هو. بنيته مختلفة. وصوته مختلف. أنا سمعت صوت ذلك الرجل قرب مكان الجريمة، ولم يكن صوت مشاري، لأنني سمعت صوت مشاري في الأمس، كان مختلفًا.

تحرّك وكيل النيابة في مقعده، ونظر إلى آلة التسجيل وهو يتأكد من أنها التقطت الجملة الأخيرة.

قالت إسبيرانزا بابتسامة خفيفة، تخفي وراءها شعورًا بالنصر:

- هذا ما أردتُ أن يسمعه الجميع.

ارتبكت المرأة، وأضافت فجأة:

- هناك شيء آخر، جنى كانت مرتبكة تلك الليلة، وقالت إن شخصًا وعدها أن يُخرجها من بيتها للأبد. لم تقل اسمه، لكنها كانت تثق به كثيرًا.

تبادل أحمد وإسبيرانزا نظرة سريعة، أدركا أن الخيط التالي قد بدأ يظهر، فأشار وكيل النيابة إلى الشرطي أن يصطحب المرأة خارج الغرفة، وبقيت كلماتها الأخيرة تدور في هواء المكان كصدى بعيد:

"شخص وعدها أن يُخرجها من بيتها.. للأبد".

ما إن أُغلق الباب حتى همست إسبيرانزا لأحمد

- إن عرفنا من هو، سنعرف من في الفيديو، وسنُنقذ مشاري.

ردَّ أحمد وهو يجمع أوراقه إلى صدره:

- أول خطوة نُقدِمُ عليها هي الرجوع إلى بيت جنى، فلعلَّ أختها رغد تفصح لنا عمَّا لا يُفصح به غيرها.

ولم تمضِ ساعة حتى بلغا الدار الكئيبة التي غاب عنها الضحك منذ فارقتها صاحبتها. كان الباب الخشبي العريض نصف موصد، يتسرَّب منه صوت تلفاز خافت، كأنما تحاول الجدران أن تطرد وحشتها بما لا يغنيها.

طرقت إسبيرانزا الباب طرقًا رفيقًا، فخرجت رغد، بوجهها الشاحب من السهر، وعيناها تحكيان عن ليل طويل لم يعرف النوم.

قالت إسبيرانزا بصوت مفعم بالرقة:

- أنا المحامية الموكلة بالدفاع عن مشاري، جئت ألتمس منكِ شهادةً خالصة لا يعتريها رياء، عسى أن ينكشف بها ستر الحق.

ترددت الفتاة برهة، ثم فتحت الباب، وأشارت إليهما بالدخول. فجلسا في غرفة ضيِّقة، على طاولتها صورة قديمة جمعت الأختين في ريعان الصبا، يسطع في ابتسامة جنى ما يوقظ في القلب ألف حسرة.

تنهدت رغد، وقالت بصوت مبحوح:

- قبل موتها بأيام، كانت تكثر الخروج، وتعود متأخرة. سألتها مرارًا، فلم تُجبني إلا بابتسامة مبهمة، وتقول: "قريبًا ستعرفين".

قال أحمد:

- وهل طرق بابكم زائر أو تردد على داركم غريب؟

هزَّت رأسها نفيًا، ثم بدا أنها تذكرت شيئًا، فارتعشت شفتاها وقالت:

- ليلة الحادثة سمعتها تهمس في الهاتف: "انتظرني عند آخر الشارع، لا تتأخر"، لم أسمع اسم الذي خاطبته.

أمسكت إسبيرانزا بالخيط، وسألتها:

- ورأيتِها بعد ذلك؟

- أجل، خرجت ومعها امرأة في عباءة سوداء، لم أُبصر وجهها.

أخرجت إسبيرانزا صورة من الملف، دفعتها نحوها، وقالت:

- هل تعرفين هذه؟

أمعنت رغد النظر طويلًا، حتى تنهدت عيناها بالدموع، ثم همست:

- أجل! هذه سارة صديقة جنى، لم أتعمق بمعرفتها لأن معرفة جنى بها كانت معرفةً غامضةً، لم تشركني بصداقتهما. لكنني أعرفها.

انتفض أحمد وقال:

- هل كانت صديقتها المقربة؟

أجابت:

- جنى لم تكن تكوّن علاقات كثيرة، فحتى لو لم تكن بالقرب الذي تعتقده، بالنسبة لجنى فهي قريبة.

انقبضت يد إسبيرانزا على الصورة حتى تجعُد طرفها، ثم قامت قائلة:

- كفيتِ ووفيتِ يا رغد، فقد قلتِ ما ينفع أكثر مما تظنين.

رفعت رغد رأسها، وقالت والرجاء يطفح من عينيها:

- وهل يُنجي هذا مشاري؟

ابتسمت إسبيرانزا، وفي عينيها بريق العزم:

- بل هو بداية النهاية لمن أراد أن يغرقه.

يفتح الله لك بابًا، لم تكن تعلم بوجوده قط!

t.me/books210

كانت الشمس تميل إلى غروبها، والسماء تصطبغ بحمرةٍ كدمٍ سال على صفحة الأفق، حين وقفت إسبيرانزا أمام بابٍ عتيقٍ يعلوه الصدأ، وتنبعث من جنباته رائحة الرطوبة والوحشة، وإلى جانبها أحمد، يتلفَّت في الزقاق الضيِّق، وهو يتفحَّص ورقة بين يديه، ولم يلبث حتى أخذ يتفحَّص المكان، ثم قال:

- أهذا هو المكان؟

فأجابته وهي تطرق الباب طرقًا متتابعًا:

- نعم، لقد أتيته في المرة الماضية.

فانفتح الباب شيئًا فشيئًا، وانكشفت عينان غريبتان فيهما خوفٌ قديم.

قالت صاحبة الدار بلهجةٍ مترددة:

- ما الذي تريدانه؟

فقالت إسبيرانزا، بتودُّد يعتليها:

- نريد أن نفتح معكِ حديثًا عن جَنى.

- مرة أخرى؟

- أجل يا سارة، لا بدَّ أن نصل إلى الحقيقة.

فأفسحت لهما الطريق، وما إن وصلا إلى الصالة حتى جلست إسبيرانزا قبالتها، ووضعت كفيها على الطاولة، وحدّقت فيها طويلًا ثم قالت:

- كنتِ في تلك الليلة مع جَني، وبعد أن أطلعتُ على الملف أكثر، أجزمت بأنكِ تعرفين أكثر مما أخبرتني به، فلماذا صمتُّ، وأخفيتِ ما رأيتِ؟

أطرقت سارة لحظةً، ثم ابتسمت ابتسامةً فيها سخريةُ المقهور وقالت:

- لأن الذي يقول الحقيقة في هذه البلاد، يشتري كفنه قبل أن ينطق بها.

فقال أحمد بصوتٍ فيه حدّة:

- وما الحقيقة إذًا؟

رفعت سارة كمَّها، فانكشف الطائر مرسومًا على معصمها، وقالت ببطءٍ تتقطع أنفاسه بين كلمةٍ وأخرى:

- الحقيقة أن مشاري بريء، وأن هناك يدًا أخرى أرادت أن يُرى مذنبًا.

فاهتزّت إسبيرانزا في مجلسها، واقتربت بعينيها حتى صارتا تلتقطان أنفاس المرأة وقالت:

- ومن تلك اليد؟

تنفست بعمق، ثم أرسلت كلماتها كمن يُلقي اعترافًا في ليلٍ طويل:

- أبوها، والد جنى. خرج مخمورًا، يتعثر في خُطاه، يسبُّها بلسانٍ ثمل، وهي تبكي بين يديه. دفَعها دفعةً عنيفة، فسقطت على الأرض، ولم أملك أن أصرخ أو أمدَّ يدي. ولمَّا التفتُّ، رأيت رجلًا يقف غير بعيد، يرفع هاتفه يصوِّر، وعيناه تبحثان عن وجهها كما يبحث الذئب عن فريسته. ثم سمعتُ صوت الارتطام. فإذا بجنى ممدَّدةٌ لا حراك بها.

- لحظة، لديَّ سؤال!

- دعيني أكمل لو سمحتِ...

ثم ارتجفت شفتاها وهي تكمل:

- أما مشاري، فما حضر، وما رأت عيناي له ظلًّا ولا سمع أذناي له صوتًا. ولكن الذي كان يصوِّر، التفت لحظةً، فرأيت وجهًا أعرفه، كان قد دخل بيت جنى من قبل مع أبيها.

سكتت لوهلة، ثم قالت:

- تلك هي الحقيقة، فإن أردتم أن أشهد، فاعلموا أن حياتي بعدها لن تكون لي.

مدَّت إسبيرانزا يدها إلى الملف، وأغلقته كمن يغلق عهدًا في صدره، وقالت بصوتٍ ثابت:

- حياتك أمانة عندي، لكنَّ الحق لا بدَّ أن يخرج إلى النور، وقبل أن أذهب، لدي سؤال، هل فعلًا رأيتِ والد جنى يُسقطها؟

أخذت نفسًا، وقالت:

- رأيته عندما كانت ساقطة، وهو يمسك برأسها، وشعرت بأن هناك ظلًّا أنثويًا هرب، ثم هناك ظلٌّ لرجل ضخم قد لحقها، فالأكيد أن والد جنى يعرف يقينًا كلَّ ما حدث، إن لم يكن هو أصلًا!

***

بعد نصف ساعة

أمسكت إسبيرانزا هاتفها، واتصلت مباشرة بمساعدها القانوني:

- أهلًا أستاذة.

- أريد كل تسجيلات المراقبة حول بيت جنى، من الساعة الثامنة مساءً حتى منتصف الليل، كل زاوية، كل كاميرا، حتى لو كانت على بعد شارع.

- حاضر، لكن قد نحتاج إلى إذنٍ.

- سأحصل عليه بنفسي، افعل ما تستطيع الآن.

ما كانت لإسبيرانزا أن تنتظر في الفضاء، لكنها أخذت تُحلِّلُ كل التفاصيل حتى مضى الوقت حين اقتربت الساعة من الثامنة مساءً،

وهي لا تزال جالسة في مكتبها الصغير، تتناثر أمامها أوراق ملف مشاري، فرنَّ هاتفها، وجاء صوت مساعدها القانوني حادًّا:

- حصلتُ على إذنٍ رسمي من النيابة لمراجعة كاميرات المحلات القريبة من مسرح الجريمة.

- وماذا وجدت؟

- شيئًا، عليكِ أن تريه بنفسك!

بعد أقل من نصف ساعة، كانت أمام شاشة كبيرة في غرفة مراقبة صغيرة خلف أحد المتاجر، ضغط الموظف على زرّ التشغيل، وبدأت اللقطات تتوالى، الشارع خالٍ، سوى من ظلَّين يتحركان على عجل، ثم توقفت الصورة فجأة، وأشار الموظف بإصبعه:

- هنا..

كان رجل يقف في زاوية مظلمة، يحمل هاتفًا موجهًا نحو بيت جني.

اقتربت إسبيرانزا من الشاشة، قلبها يخفق، وهي تحدق في ملامحه، لكن الظلام ابتلع أغلبه.

قال الموظف:

- لحظة..

زاد الإضاءة على الصورة، وظهرت تقاطيع الوجه بوضوح أكثر، وتحديدًا عند جهة بيت جنى، وكان قبل وقوع الحادث بدقائق، اقترب رجل آخر من البيت، ثم دخل وخرج!

شهقت إسبيرانزا، وشدّت على حافة الطاولة:

- إنّه هو!

التفت إليها مساعدها:

- من؟

- حمد، والد جنى.

ظلت الصورة أمامها، فأخذ الرجل يرفع هاتفه، ويسجّل شيئًا لا يسمعه أحد، لكنها سمعت في رأسها الآن صدى كل التفاصيل: الفيديو، الاتهام، سرعة انتشار الشهادة، جميعها كانت تسير في طريق واحد، إلى أن وصلت إليه.

ابتسمت بخِفّة، وقالت بصوت بالكاد تسمعه:

- اللعبة انكشفت يا أبا جنى.

***

في الصباح التالي
الساعة العاشرة صباحًا
10:04

ذهبت إسبيرانزا مباشرة إلى النيابة، وطالبت بمقابلة حمد، والد جنى، بحجة أنه شاهدٌ رئيسي في القضية.

وفي غرفة التحقيق، كان يجلس متكئًا إلى الخلف، يعبث بمسبحته، وعيناه نصف مغمضتين كمن لا يريد أن يتذكر، دخلت إسبيرانزا بخطوات ثابتة، وضعت الملف على الطاولة أمامه، ثم جلست، وصوت الكرسي يخدش الصمت.

قالت بهدوء:

- أستاذ حمد، لفت انتباهي أنك كنت قريبًا جدًّا من مسرح الجريمة.

فتح عينيه، وابتسم ابتسامة مائلة:

- أنا والد الضحية، من الطبيعي أن أكون قريبًا.

أخرجت من الملف صورة مأخوذة من كاميرات المراقبة، دفعتها نحوه:

- قريب، إلى درجة أنك كنت تمسك رأسها بعد مقتلها.

تغيّرت ملامحه لحظة، ثم تمالك نفسه، وأزاح الصورة بيده:

- لا أعرف ما تقولينه.

أشارت بإصبعها إلى الوشم الصغير الذي ظهر في طرف الفيديو بجانب وجهه، حيث يد امرأة مرَّت في الخلفية:

- وهذه اليد، أنت تعرف صاحبتها، أليس كذلك؟

تردَّد، وأخذ المسبحة يديرها بسرعة، ثم قال:

- لم أرَ شيئًا بهذه الليلة، لكن نعم، أعرف صاحبة الوشم، سارة صديقة جني.

انحنت نحوه قليلًا، ونبرتها ازدادت صرامة:

- بل رأيت.. وكنت السبب.. وكان هناك من يعاونك على التصوير، لتُلصق التهمة بمشاري، بعد أن ينتشر الفيديو.

نظر إليها طويلًا، وفي عينيه بريق حذر، ثم قال:

- هذه ابنتي يا أستاذة، أنتِ تقولين أشياء لا يصدقها عاقل، ثم أنتِ لا تعرفين شيئًا عن جني، ولا عني.

أجابت، وهي تسحب الصورة من أمامه:

- ربما، لكني أعرف شيئًا واحدًا الآن، أنك لم تقل الحقيقة، وهذا وحده يكفيني لأبدأ منك!

نهضت من مكانها، وحملت الملف، وقبل أن تخرج، أضافت:

- المرة القادمة، سيكون الحوار في قاعة المحكمة.

وتركته جالسًا، يعبث بمسبحته، لكن هذه المرة، دون أن تلتقي الخرزات ببعضها.

***

أعادوا مشاري إلى غرفة التوقيف، والقيود ما تزال تحفر في معصميه حفرًا كأنها تريد أن تترك في جسده شهادةً على براءته المظلومة، فجلس على المقعد الحديدي، لا يراه الرائي إلا كتمثالٍ حزين انحنى على نفسه، وما لبث أن دخلت إسبيرانزا، ملفها تحت ذراعها، غير أنها هذه المرة لم تدخل بوجه المحامين الجامد، بل بوجه امرأةٍ حملت بين عينيها حرارة القلب، وعزيمة من عرف موضع السهم في صدر العدو. أشارت إلى الشرطي أن يتركهما، فخلت لهما الغرفة إلا من أنفاسهما المضطربة.

جلست أمامه، ثم وضعت الملف على الطاولة، وانحنت نحوه وقالت بصوتٍ خافتٍ يختبئ فيه النبأ:

- وجدتُ الخيط الأول.

رفع رأسه قليلًا، وكان وجهه يحمل صلابةً تُكابر عن جرحٍ عميق، لا يريد أن يراه أحد.

قال:

- ماذا تعنين؟

فتحت الصفحة، وأشارت إلى الصورة، وقالت بثباتٍ لا يتزلزل:

- هذا، ليس أنت.

غير أنه لم يكن يراها إلا بعيني قلبه، لا يهتمُّ لتفاصيل القضية، أكثر من اهتمامه أن يشبع من النظر إليها. فلم يكن يسمع إلا أنفاسها.

قال، وهو يزفر زفرةً ممزوجة بالحب:

- لا يهمني ما في الملف، أعلم أنني في قلبكِ، وأنك تحملين براءتي كما تحملين نفسك، ما يهمني أن أعرف حالكِ.. كيف حالكِ يا إسبيرانزتي؟

احمرَّ وجهها من الكلمة، وارتبكت يداها في الأوراق، ثم رفعت عينيها حياءً وقالت:

- بخير، ما دمتَ أنت بخير.

أخذ مشاري الملف منها، وأغلقه بيده، كأنما أغلق به أبواب الدنيا، ثم أسند رأسه إلى ظهر الكرسي وقال مبتسمًا ابتسامةً حزينة:

- لون المرجان الحيّ يليق عليكِ.

فأطرقت تنظر إلى ثوبها، وارتعشت يدها تمسح دمعةً انحدرت بغير إذن، فقالت وهي تخفي ارتجافها:

- مشاري، دعنا نُفكِّر في القضية، هذا وقت الدفاع لا العاطفة.

قال، وصوته يتهدَّج من شدَّة الحب:

- أحبكِ.

قالت مرتجفة:

- مشاري...

فأجاب، وعيناه تسبحان في جمالها:

- أنتِ هديتي من الله، أرسلكِ استجابةً لدعوة أمّي، فما خيّب الله قلبها، ولا خيّبني بكِ.

فانهارت دموعها على كفّها، ورفعت رأسها تبكي وتبتسم في آن. وقالت بصوتٍ عاشق:

- سأكون لك جيشًا حتى تنتصر يا مشاري...

فابتسم، وأجاب بصوتٍ ثقيل:

- وأنتِ وحدكِ، عن الدنيا بأسرها.

خربشات مشاري
@books210

@books210

سأكونُ لك

إن ضاقَ صدرُكَ بالحزن

وأظَلُّ فيكَ

إذا جَفَاكَ النّاسُ من زمن

وأكونُ ظلَّكَ

إن طغى ليلُ الأسى..

وأعيشك حتى تنسى

من أنا!

سأكونُ لك

حربًا في وجه من أرادك تنكسر

سأكونُ لك

جيشًا حتى تنتصر!

امرأة واحدة، إن كانت لك؟
ستغنيك، وتكفيك، وتكون لك كُل شيء.

في صباح اليوم التالي
الساعة الثامنة صباحًا
8:12

كان مشاري في غرفة التوقيف، وفي الخارج إسبيرانزا تقف أمام مكتب وكيل النيابة، تضع ملف القضية على الطاولة بقوة لم يخفَ معناها:

- أطلب استدعاء المرأة صاحبة الوشم التي تدعى سارة فورًا، والتحقق من الشخص الذي كان برفقتها تلك الليلة.

رسقها وكيل النيابة ببرود:

- وما الدليل الكافي لذلك؟

دفعت الصور نحوه، الواحدة تلو الأخرى:

- كاميرات المراقبة من -شارع المتنبي- والزمن المثبَّت عليها يطابق ساعة الجريمة، لكن الرجل الذي معها ليس مشاري، وهي تعلم ذلك، فقد أخبرتني بأن مشاري بريء.

ثم أشارت بظفرها إلى الصورة:

- لاحظ الفرق في الطول، في وضع الكتف، حتى طريقة الخطوة.

ظل وكيل النيابة يتفحص الصور، وشيء من الشك بدأ يزاحم يقينه السابق، ثم أغلق الملف، وأمر المساعد:

- أرسلوا طلب استدعاء عاجل، إلى سارة.

في التوقيف، فتح الباب، ونادى الشرطي على مشاري:

- استعد، هناك تطور في قضيتك.

وقف مشاري وهو لا يعرف إن كان قلبه يسبق قدميه أو العكس، وعندما خرج إلى الممر، لمح إسبيرانزا بانتظاره، وفي عينيها بريق يشبه الوعد.

همست وهي تمرُّ بجانبه:

- اقتربنا.

وفي غرفة التحقيق، جلس مشاري على طرف الكرسي، وعيناه معلقتان بالباب الحديدي.

صوت المفاتيح دوّى حين انفتح الباب..

دخلت المرأة، العباءة السوداء على كتفيها، والوشم يلمع على معصمها.

رفعت رأسها، والتقت عيناها بعينيه، فدارت لحظة الصمت دورةً كاملةً، ثم قالت ببرود:

- إذًا، هذا هو مشاري، الذي سمعته في الممر قبل أيام يتحدث.

جلس الجميع، والهواء في الغرفة صار أثقل من الحديد.

أسندت إسبيرانزا مرفقها إلى الطاولة، وكان الملفُّ مفتوحًا أمامها على الصفحة التي تصفُ الوشم. فأخذ وكيل النيابة زمام الحديث:

- السيدة سارة. هناك تطور في القضية. وهناك صور تحملكِ بداخلها قبل موت الضحية بساعتين، وجدنا صورًا أكثر وضوحًا.

رفعت سارة حاجبها، وقالت بهدوء فيه شيء من التحدي:

- كنت معها، نعم. لكن ذلك لا يجعلني قاتلة.

تدخلت إسبيرانزا بسرعة، قبل أن ينزلق الكلام:

- لم نقل إنكِ القاتلة! نحن نقول إن الرجل الذي كنتِ معه تلك الليلة، لم يكن مشاري.

ارتبكت نظرة المرأة للحظة، ثم ابتسمت باهتة:

- وهل أنا قلت إنه كان مشاري؟ أنا حتى لم أكن أعرف اسمه قبل أن تنتشر صورته بين الناس، وعلى الرغم من معرفتي بجنى وزيارتها كثيرًا، لم أرَهُ في الشارع حتى إلا مرة واحدة قبل سنين.

رمقها مشاري بدهشة، كأنه يسمع شيئًا من عالم آخر، ثم تقدمت إسبيرانزا إلى الأمام، وصوتها يزداد حدة:

- إذًا من هو؟ من كان معكِ حين خرجتِ مع جنى في تلك الليلة؟

- كان... شخصًا وعدها أن ينقذها من بيتها، لا أكثر.

ضرب وكيل النيابة القلم على الطاولة برفق:

- اسم هذا الشخص؟

رفعت سارة رأسها، وابتسمت ابتسامة باردة:

- إن قلت اسمه، فأنتم لن تستطيعوا لمسَه.

قالت إسبيرانزا وقد سأمت من تلاعب هذه المرأة في الحديث كل مرة:

- إذا لم تذكري اسمه، سأعتبرك شريكة.

ضحكت سارة ضحكة قصيرة، بلا دفء:

- وهل الشريك دائمًا يحمل السكين؟ أحيانًا يكفي أن يغلق الباب..

شعر مشاري بدمه ينسحب من وجهه، فقال بنبرة متوترة:

- تتحدثين بالألغاز! قولي بوضوح، من هو؟

تنهّدت سارة، وأبعدت نظرها، كأنها تحاول أن تخرج كلمة ثقيلة من قلبها:

- اسمه... علي.

سقط الاسم في الغرفة كحجر في ماء راكد، فارتجف مشاري ارتجافًا واضحًا، وأحس كأن أحدهم طعنه من الخلف:

- علي... لا أعرف أحدًا بهذا الاسم سوى أبي؟ من تقصدين بعلي؟

أومأت سارة ببطء، ثم أكملت:

- نعم، والدك. هو من جاء تلك الليلة، وهو من أخذ جنى من أمام بيتها، وكان ثملًا.

انتفض وكيل النيابة في مكانه قائلًا:

- هل تدركين خطورة ما تقولين؟

قالت سارة بثبات:

- أدرك، وأقسم أن ما أقوله صحيح. لدي ما يثبت ذلك.

قالت إسبيرانزا وهي تحاول الثبات:

- ما هذا الإثبات؟

ابتسمت سارة لأول مرة ابتسامة حقيقية:

- هاتف جنى الثاني، لم يُسلَّم لأحد بعد. وأنا أعرف أين هو.

قالت إسبيرانزا بسرعة، كأنها تمسك بالدقيقة من عنقها:

- أين الهاتف؟

أجابت المرأة وهي تميل إلى الأمام، تخفض صوتها حتى يكاد يضيع بين أنفاسها:

- في بيت مهجور خلف السوق القديم، جنى خبأته هناك، وقالت إنها ستعود لأخذه إذا حصل لها شيء.

قاطعها وكيل النيابة بحدة:

- ولماذا لم تذكري ذلك منذ البداية؟

رفعت المرأة نظرها نحوه، وفي عينيها غضب مكتوم:

- لأنني كنت أعرف، أن أول من سيتهم هو شخص بريء. وها أنتم فعلتم.

التفتت إسبيرانزا فورًا إلى وكيل النيابة وقالت:

- اسمح لي بالخروج الآن، الوقت ليس في صالحنا.

هزَّ رأسه بتردد:

- لن أسمح لك إلا إن جاءت معي قوة من الشرطة.

- لا بأس، لكن تذكر، كل دقيقة نتأخر فيها، قد تكون دليلًا يحترق.

نهض الجميع، وفي لحظة خروجهم من الغرفة، لمح مشاري إسبيرانزا وهي ترمقه بنظرة واحدة، نظرة وعدت بالكثير، حتى باتت الوعود تتحقق أمامه، لكنَّ ما يحترق في جوفه ليست البراءة، إنما دخول أبيه في القضية من العدم، وهو يعلم جيدًا أن أبيه لا يشرب، بل يعبد الله حقَّ عبادته ويخاف يومًا عسيرًا!

***

بعد ساعتين

كانت الشمس ساطعة، لكن الأزقة المؤدية إلى السوق القديم تضج بظلٍّ رطبٍ ورائحة الغبار العالق منذ أعوام. خطت إسبيرانزا وسط رجال الشرطة، وعيناها تتفحّصان الجدران المتهالكة، والنوافذ التي أُغلقت بألواح صدئة، حتى توقفت أمام بيت صغير، بابه الخشبي مشروخ كأن أحدهم اقتلعه يومًا ثم أعاده مكانه.

قالت وهي تشير:

- هنا.

دفع أحد رجال الشرطة الباب بقدمه، فانفتح بصوت أنين طويل، ثم دخلوا، وكانت راحة التراب هي الطاغية، لكنهم وجدوا في الزاوية الشرقية خزانة حديدية صغيرة!

فاقتربت إسبيرانزا، وجثت على ركبتيها، ثم مدّت يدها بحذر وهي ترتدي القفاز، وأخذت تفتح الباب الصدئ. ثم لم تلبث في البحث حتى شعرت بأنها تُمسك بشيء صلب، فكان الهاتف المنشود، أخرجته ثم مسحت منه طبقة الأتربة.

فقال أحد الضباط وهو يمدُّ يده ليلتقطه:

- ربما لا يعمل.

لكن إسبيرانزا أوقفته:

- لا تلمسه. أريد أن أسلّمه كما هو إلى الفحص الجنائي، هذا الهاتف قد يغيّر كل شيء.

وذهبوا فورًا بعد أن أخذوا منه عيّنات إلى غرفة صغيرة تابعة للفحص الجنائي. جلس خبير الأجهزة أمام شاشة كبيرة، وبدت أصابعه تتحرك بخفة على لوحة المفاتيح، فهو يعرف جيدًا كيف يتعامل مع المجهول. بينما اكتفى وكيل النيابة وإسبيرانزا بالوقوف خلفه وهما يراقبان.

كان الهاتف مُلقى على الطاولة، موصولًا بأسلاك وأجهزة دقيقة، ولم يمضِ الوقت أكثر حتى بدأت تظهر على الشاشة مجلدات وصور وفيديوهات لم تُفتح بعد.

فقال الخبير وهو يرفع حاجبه:

- الجهاز قديم الإصدار، لكن الذاكرة سليمة، ويبدو أن آخر تسجيل تم قبل أيام قليلة من مقتل جنى كما هو موضّح في تاريخه.

ثم ضغط مفتاحًا، فامتلأت الشاشة بصورة مشوشة في بدايتها، إلى أن بدأ الفيديو.

كانت جنى تجلس على درج بيت ما، والليل يحيط بالمشهد، وبجانبها ظلُّ رجل يحمل ملامح غير واضحة.

فتقدمت إسبيرانزا خطوة وهي تُمعن النظر جيدًا لكل التفاصيل الصغيرة.

رفع الخبير مستوى الإضاءة والإطارات، شيئًا فشيئًا بدأت الملامح تتضح.. لم يكن الرجل مشاري!

كان آخر، أكبر سنًّا بقليل، ووجهه نحيف مغطى بالظلام، لكن طريقة مشيته وانحناءة كتفيه لا تشبه مشاري أبدًا.

قالت إسبيرانزا بصوت منخفض لكنه يحمل يقينًا:

- هذا ليس مشاري.

توقفت يد الخبير للحظة، ثم قال:

- انتظري، هناك مقطع آخر مرتبط بنفس الليلة.

ضغط مجددًا، فظهر المشهد الأهم!

الرجل ينهض فجأة، ينظر حوله بحذر، ثم يخرج شيئًا من جيبه، ولم يكد يقترب من جنى حتى دخلت في الكادر امرأة ترتدي عباءة سوداء، والوشم على معصمها الأيمن يلمع تحت ضوء المصباح، لكنَّ صوت جنى بدأ يتسرَّب للفيديو حين كانت تقول:

- أيها المهندس، أرجوك...

ثم تبادلا بضع كلمات غير مسموعة. بانسحاب سارة التي تركت جنى مع الرجل، وبعد أن رحلت، توقَّف التسجيل فجأة.

ساد الصمت أرجاء الغرفة، حتى قال وكيل النيابة ببطء:

- إذًا، الفيديو الذي بُنيت عليه التهمة، كان ناقصًا.

رفعت إسبيرانزا نظرها نحوه، وفي عينيها تحدٍ واضح:

- ناقص، ومضلّل، لكن من المقصود بالمهندس؟

أغلق الخبير الملف الرقمي، وأسند ظهره إلى الكرسي قائلًا:

- هذه النسخة الكاملة للفيديو، محفوظة الآن في محركنا الآمن، ولن يجرؤ أحد على الطعن فيها.

مدّت إسبيرانزا يدها، وأخذت نسخة مطبوعة من تقرير الفحص، ثم التفتت إلى وكيل النيابة:

- أظن أن العدالة لا تقبل إلا الحقيقة كاملة، وهذا الرجل بريء.

أخذ وكيل النيابة التقرير، قرأ الصفحات بسرعة، وكلما تقدم في القراءة ازدادت التجاعيد حول عينيه.

أغلقه فجأة، ثم رفع عينيه نحوها:

- إسبيرانزا، أنتِ تعرفين ما يعنيه هذا.

- نعم، يعني أنكم احتجزتم بريئًا، بينما القاتل ما زال حرًّا.

لم يجب، بل ضغط على زرّ الاتصال الداخلي، فجاء صوت الحارس:

- نعم، سعادة الوكيل؟

أزاح النظارة من وجهه، وأخذ يفرك عينيه وهو يقول:

- أفرجوا عن مشاري بن علي فورًا، وأرجعوا إليه جميع أغراضه.

كيف لكِ كل هذا، وأنتِ واحدة؟

لم يطل بمشاري المقام في غرفة التوقيف، حتى انفتح الباب، فإذا بالشرطي يدخل، وخلفه إسبيرانزا، تمسك بيدٍ ملفًّا ثقيلًا، وفي الأخرى ابتسامة لم يذق مثلها منذ وطأه الظلم، فنهض دفعةً واحدة، وارتجَّت القيود في معصميه كما ترتجف السيوف حين تخرج من أغمادها.

وقف شامخًا، وعيناه تتسعان بالهيبة لا بالانكسار. ثم تقدَّم خطوةً إلى الأمام، فدنَت منه إسبيرانزا، وفي نبرتها فرحةٌ ممتزجةٌ بدموعٍ حبيسة، وهمست:

- ألم أقل لك تماسك؟ ها أنت بين يدي من جديد، عُدت إليك والبراءة تسبقني.

ابتسم حتى هزَّ رأسه مُعتزًّا بها، وخرج معها إلى بهو النيابة، فاستقبل وجهه ضوء النهار بعد عتمةٍ طالت أيامها، فالتقى مع وكيل النيابة الذي سلَّمه أغراضه بنفسه، وقال بصوتٍ يجلجل كصدى القدر:

- خرجتَ اليوم، ومحاكمتك لم تبدأ على الأطلاق، لكن القاتل ما زال طليقًا، فلتستعد للطريق الأصعب، شكرًا يا مشاري على هدوئك.

بادله مشاري الاحترام ثم مشى إلى جانب إسبيرانزا، وخطاه ثابتة، كأنما القيود التي سقطت عنه زادته صلابةً لا ضعفًا. أما هي، فكانت تنظر إليه بعينٍ مشفقة، عاطفتها تسابق كلامها سباقًا يزداد حبًّا كلما قطعت ميلًا جديدًا في قلبها تجاهه.

جلسا في السيارة، فألقت الملف خلفها وأمسكت بالمقود، فالتفت إليها مشاري، وقال بصوتٍ رجوليٍّ عميق، تُخفي صلابته ارتجاف المشاعر في داخله:

- قولي لي يا إسبيرانزا، من أنقذني؟ أنتِ، أم ذلك الدليل؟

أجابت بعينين تفيض صدقًا، وفيهما حبٌّ لا يعرف مواربة:

- قلبي، هو الذي أنقذك.

ظلّ يحدّق فيها طويلًا، صامتًا، كأن النظرة وحدها تكفي لتقول كل ما يعجز اللسان عن حمله. فابتسمت، ومسحت دمعة باغتتها، ثم أضافت بحزمٍ يفيض حنانًا:

- ما زال هناك خيط لا ينبغي أن يُهمل، سارة ذات الوشم، راوغتنا جميعًا في كذبها المستمر، لا بدَّ أن نذهب إليها.

ثم مضت بالسيارة، حتى توقفت أمام بناية قديمة في شارع جانبي، وأشارت إليها بإصرارٍ وهي تقول:

- هنا تسكن.

***

لم تمضِ إلا دقائق حتى فُتح الباب في تردُّد، وظهرت سارة التي ما إن رأت إسبيرانزا حتى أزفرت بمللٍ ظاهر وهي تقول:

- أرجوكِ، دَعي عني هذه القضية، فلستُ مدينة لأحد بعُمري.

لكنها ما لبثت أن شهقت حين وقع بصرها على مشاري، قائمًا خلف إسبيرانزا، ساكن النظرات، كأنما حضوره وحده شهادة حيّة على براءته. عندها تقدّمت إسبيرانزا خطوة وقالت بثباتٍ يقطر يقينًا:

- جئنا لا لننازعك، بل لنسمع منك الحقّ في شأن جَنى. وهذه المرة مشاري معي، وهو بريء.

فقالت سارة ببرودٍ تخالطه رعشة خوف:

- تفضّلا لكن اعلما أن ما سأقوله لن يُرضيكما.

جلست سارة على أريكةٍ قديمة، جمعت ركبتيها إلى صدرها، كطفلةٍ تحتمي من بردٍ داخليٍّ، وراحت تحدّق في الأرض طويلًا قبل أن تنطق بصوتٍ متهدّج:

- كنتُ مع جَنى تلك الليلة. كانت ترفض العودة إلى بيتها، وتقول: "لن أحتمل الليلة، ثمة من وعدني بالحماية". ولمّا سألتها من هو، لم تجبني. لكنني علمتُ أنه لم يكن أنت يا مشاري.

ارتفعت أنفاس إسبيرانزا، وقالت بلهجة صارمة:

- فمن يكون إذًا؟

أغمضت المرأة عينيها، ثم أرسلت تنهيدةً طويلة وقالت:

- ما أذكره أن رجلًا قد جاوز الخمسين، تفوح منه رائحة الخمر، انتظرها في آخر الزقاق وهذا تحديدًا قبل مقتلها بساعتين. سمعتها تقول له: "أرجوك، لا تُخبر أبي". فوقع في قلبي أن ذلك الرجل هو

والدك يا مشاري، ثم انتظرها حتى عادت، وذهب أبوك حيث لا أعلم، ثم عاد سيرًا قبل أن يحدث كل شيء.

ارتجف وجه مشاري وكان يقول أمرًا لولا وقفة إسبيرانزا التي عاجلتها بالقول:

- أكملي.

قالت سارة، وصوتها يغور في صمت الغرفة:

- عندما عاد سيرًا كان الظلام حالكًا، وأنوار الشوارع أغلقت للصيانة، كأنه سيطر على كل شيء لتكون الجريمة غامضة.

قال مشاري وهو يبتسم بغرابة:

- هل رأيتِ أبي من قبل؟

- لا...

- كيف تحكمين إذًا؟

ثم أخرج هاتفه، وأظهر صورة واضحةً لأبيه، وقال:

- هذا هو.

سكتت سارة وهي تكبِّر الصورة بكلتا يديها، ثم أخذت تفكِّر هنيهة قبل أن تقول:

- بنسبة كبيرة هو.

رأى مشاري إسبيرانزا وهو يضحك من أعلاه، ثم نهض وركل الطاولة برجله، وقال:

- أقسم لكِ ثلاثًا، إن كان أبي بريئًا، سأحاسبكِ.

تراجعت سارة هلعة في مكانها. وهي تقول:

- لن أشهد أنه أبوك...

فقاطعتها إسبيرانزا:

- أنتِ شهدتِ بالمرة الأخيرة على أن أبا مشاري هو المذنب!

ثم مدّت إسبيرانزا يدها إلى حقيبتها، وأخرجت ورقة بيضاء، وضعتها أمام سارة وقالت بحزم:

- اكتبي شهادتك كما قلتِها الآن، وأوقعي عليها. فهذا الحقُّ لا بدَّ أن يُحفظ.

ترددت لحظة، ثم أمسكت القلم ووقّعت. حينها نهضت إسبيرانزا، وأشارت إلى مشاري بالخروج.

***

عاد مشاري مع الليل وهو يجرُّ قدميه إلى بيته، وما إن فتح الباب حتى وجد أباه جالسًا يُقلّب هاتفه. فاقترب مترددًا وقال:

- مرحبًا أبي...

فوثب الشيخ من مكانه، وارتمى على عنقه يقبّله وهو يقول باكيًا:

- كنتُ أعلم أن ابني بريء!

احتضنه مشاري، وسالت دموعه على كتف أبيه. فما أشدُّ وقع البراءة إذا حملت في طيّاتها جُرم الأب! وبينما هما في حضنٍ كاد يذيب القلوب، دوّى طرقٌ عنيف على الباب.

فاستغرب مشاري ذلك، وأسرع إليه، وما إن فتحه حتى رأى رجال الأمن، وجوههم صارمة، وقائدهم يتلو بصوتٍ جاف:

- أين علي بن محمد؟ معنا أمر استدعاء رسمي للتحقيق في قضية مقتل جني.

شعر مشاري أن جدران البيت تميل فوقه، وأبوه يلتفت إليه بعينين تضجّان دهشةً وإنكارًا، ثم قال متلعثمًا:

- ما دخلي أنا؟! .

لكن الضابط لم يُمهله، قرأ بصوتٍ لا يعرف العاطفة: أن شهادة جديدة تطابقت مع أوصاف الرجل في الفيديو، وأن النيابة تستدعيه للتحقيق.

رأى مشاري وهم يسحبون أباه للخارج بهدوء، فانكسرت في داخله كل صلابةٍ بناها، إذ لا ينهزم الرجل مهما عَظُم إلا إذا رأى الهزيمة في عيني أبيه. سار الأب بينهم، خطواته أثقل من جبال، حتى غيّبه الظلام عند الباب.

وقف مشاري واجمًا، والدمع في عينيه، وأدرك أن الملف الذي ظنّه قد أُغلق، ما كان إلا بابًا فُتح على مأساة أشد وطأة، مأساة عنوانها: الدم بين جدران البيت

***

في صباحٍ مشرقٍ على غير عادته، اجتمع وكيل النيابة، وإسبيرانزا، وضابط التحقيق في غرفة واسعة رسمية، تكدّست فيها الأوراق حتى ضاقت الجدران بأنفاسها. كان مشاري في الخارج، يذرع الممر جيئة وذهابًا، كأن قلبه طفل مذعور يخشى على أبيه أكثر مما يخشى على نفسه.

وضعت إسبيرانزا على الطاولة قرصًا مدمجًا، وقالت بثباتٍ لا يعرف ارتجافًا:

- هذا تسجيل الكاميرا من محلّ البقالة المقابل لبيت جنى، قبل الحادث بساعات، في الأمس وجدته خلال بحثنا عن الحقيقة.

فاشتغل المقطع، وإذا بمشاري يوقف سيارته أمام بيت الجيران، تنزل جنى وأختها، ثم يعود أدراجه إلى بيته دون أن يكون له أثر بعد ذلك.

فقال الضابط في حدةٍ متعجلة:

- ولكن في الفيديو المزعوم يظهر ساعة الجريمة!

ابتسمت إسبيرانزا ابتسامة الواثق، وأخرجت صورةً من التقرير:

- لأن الرجل الذي في الفيديو، ليس مشاري، وهذا يُثبت نهاية الأمر.

ثم أشارت بإصبعها إلى المعصم:

- هنا وشم واضح، ومشاري لا يحمل في جسده وشمًا أبدًا.

وأتبعت ذلك بورقة أخرى، وقالت:

- والأهم، أن مشاري كان في ذلك الوقت بعينه في بيته، نائمًا، تشهد بذلك أجهزة المراقبة التي رأيناها من كلّ زاوية، أعلم بأن مشاري ظهرت براءته، لكنّ هذه الأدلة احفظوها لديكم للزمن.

تحرّك وكيل النيابة في مجلسه، وقال متسائلًا:

- وأبوه علي؟ أما قيل على لسان سارة أنه السبب وكان مخمورًا؟ ثم أنه محجوز لدينا على ذمة التحقيق.

فتحت إسبيرانزا ملفًا آخر، ورفعت عينيها إليه في ثبات:

- الأب علي كان في المستشفى مع خاله المريض، وهذه الشهادة وتوقيع الطبيب وموظف الاستقبال. لا خمر ولا ضرب، وإنما افتراء. ابحثوا وراء سارة ذات وشم الطائر، فهي التي وراء كل الافتراءات التي بزرها كل التسجيلات والمحاضر الرسمية للدولة، هي التي نسجت الوهم.

فساد الصمت، ثم أومأ وكيل النيابة برأسه، وقال:

- إذًا، التهمة تنحسر، لا تبرأ كاملة بعد، لكنها تسقط عنكما.

ثم نادى على مشاري، فدخل مترددًا، وعيناه تتفقدان ملامحهم، لا لأجله بل خوفًا على أبيه.

قال وكيل النيابة بصوتٍ يحمل وقار القانون:

- أنت وأبوك لا تُدانان بشيء. وسنرفع إلى وزارة العدل توصية بنشر براءتكما في الجريدة الرسمية والتلفاز، حتى يُمحى عن اسمك ما علق به.

أمر بعدها أن يؤتى بالأب من التوقيف المؤقت، فدخل "علي" شاحبًا مثقلًا بتجاعيد الهم، وما إن علم بالخبر حتى خرّ ساجدًا على الأرض، سجدة شكرٍ تنطق قبل لسانه: الحمد لله الذي يُخرج عباده من بين براثن المستحيل.

خرج مشاري من المبنى، بصحبة أبيه، فلم يمشي أكثر حتى وقف أبوه ووضع يده على كتف ابنه وقال:

- ألم أقل لك يوم ظلمك معلم العلوم في صغرك؟ الحق لا يضيع يا بُني.

وفيما كان مشاري يلتفت نحو أبيه، خرجت إسبيرانزا من باب النيابة، تحمل ملفها في يد، وهاتفها في الأخرى، تخاطبه بكلمة قصيرة تتبعها ضحكة هادئة. ولما بلغت الرصيف المقابل، توقفت لحظة تنظر في ازدحام السيارات، تبحث عن منفذ لتعبُر، فإذا بسيارة سوداء فاخرة تقف أمامها، وزجاجها ينخفض قليلًا. فينكشف وجه تعرفه. بابتسامة ثابتة، لا هي دعوة ولا هي وداع، بل توقيع صامت على قدرٍ لم يُكتب بعد.

شردت للحظة، حتى كادت أن تنسى أن السيارات حولها تتقدّم، قبل أن تسمع صوت مشاري من بعيد

- إسبيرانزا! انتبهي...

تحرّكت لتعبر الطريق، غير أن ملامح ذلك الوجه لم تفارق ذهنها، بل استقرت فيه ككلمة ناقصة تبحث عن معناها الأخير، وباتت تخاف أكثر من ضياعها خلف تلك النظرات.

@BOOKS210

t.me/books210

لن تبدأ حكايتك حتى تُفارق من اعتقدت
أنك لن تفارقه!

انهمرت السكينة على قلب مشاري كما ينهمر المطر على الصحراء العطشى، فلم يعرف ليلًا أهدأ من هذه الليلة منذ زمن بعيد، لكنه، وقبل أن يسلّم عينيه للنوم، تحرّكت في داخله صورة إسبيرانزا، فاشتدّت رغبته أن يبعث إليها برسالة.

كتب:

من مشاري إلى إسبيرانزا

يظلُّ المرء يسير في طرقات لا يعرف نهايتها، حتى تلوح له يدٌ تُشبهه، وتنتشله دون أن يسأل.

إسبيرانزا، لستُ أملك مفردات تكفي لأصف ما وضعتِه في أيامي من طمأنينة، لكنني أعلم أن الله حين أراد أن يخفّف عني، أرسلني إليك، فأنا وأنت لا نتوب، مهما ابتعدنا عن بعضنا نعود.

شكري لكِ ليس كلمة، بل حياة أُعيد ترتيبها على صورتكِ.

فالله حين أراد أن يعوّضني؟ عوّضني بك.

قرأ ما كتب، ثم ابتسم ابتسامةً في سِرّه، وأرسل الرسالة.

مهما أمسكتك الأيام بحزنها، وبُتَّ قلبًا ضائعًا لا يعرف الطريق، تذكر دائمًا:

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾

فالله لا يرمّمك وأنت تكابر على قدرته، بل عندما تنهزم في سجودك، فالدعاء الذي يصاحبه شكًّا بأن الله ربما لا يلبّي، ليس كالدعاء الذي يخرج من قلب متيقّنٌ أن الله سيستجيب..

إن الله إذا أراد أن يعوضك؟ لن يعوضك إلا بما كنت تراه مستحيلًا، فمن خلق المستحيل، ومن علّمنا المعجزات، يستطيع أن يرسل إليك معجزة، تُنسيك ما كنت تريد، فيعطيك أجمل مما طلبت، ومما تحلم..

لن تكون في الضياع، والله في قلبك..

لن يضيع إلا من نسي أن الله قادر..

فما حاجتي إلى عناق من يفنى، وقد احتواني الحيُّ الذي لا يموت؟

***

تثاقلت الأيام على مشاري، تسير كما يسير الأعمى في طريق لا نهاية له، كل ساعةٍ تمرُّ، كانت تُلقي في صدره حجرًا جديدًا من انتظار رسالة منها.

وفي ليلةٍ أثقله فيها السهر، ولفحَهُ الحمى، اضطرب الهاتف بين يديه، فإذا بالاسم الذي هرب منه النوم يعود إليه على صفحته البيضاء.

من إسبيرانزا إلى مشاري

ما زلت أذكر اتفاقنا.. أن نترك للمشاعر مسحة، فلا نرهقها بكثرة السؤال، وأن نكتفي برسالة كل أسبوع.

والحمد لله، كان أسبوعي عامرًا بالعمل والإنجازات، لكن كل إنجاز، مهما كبر، كان يفتقد إلى كلمة واحدة منك.

لهذا، دعنا نكسر القاعدة الليلة فقط.. لتكون رسالتين، بدل من رسالة.

فكيف حالك؟ وهل حفظتَ على نفسك من التعب كما وعدتني؟

قرأها أكثر من مرة، ثم أمسك بالقلم والورقة، وكتب:

من مشاري إلى إسبيرانزا

لستِ تعلمين يا إسبيرانزا كم مضى عليّ هذا الأسبوع كأنه شهر من مواسم الغياب.

كنتُ أفتح نافذتي كل صباح على أمل أن يمرّ طيفك مع الهواء، وأن أسمع صوتك في زحمة النهار، لكنني كنت أعود كل مساء إلى صمت يشبهك، إلا أنه بلا دفء.

سؤالكِ اليوم لم يكن مجرد كلمات، كان بابًا فُتح في جدار الأيام، فدخل منه الضوء.

وأقسم أنني بخير، ما دمتِ أنتِ بخير.

ثم أمسك هاتفه، وصوَّر الورقة، وأرسلها إليها..

وبقيت الشاشة مضيئة أمامه، ينتظر النقاط الثلاث التي تعلن أن الرد قادمٌ!

فلم ينتظر أكثر من دقائق قليلة، حتى وصل الرد إليه:

من إسبيرانزا إلى مشاري

أتدري؟ كنت أقرأ رسالتك كأني أسمع صوتك بين السطور.

لستَ وحدك من يفتح النافذة على أمل، فأنا أفتح قلبي كل يوم وأتركه على مصراعيه. لعلَّ دعاءك يمرُّ منه.

أما الضوء الذي تحدثتَ عنه. فأنا لم أرَد اليوم إلا حين قرأت رسالتك.

لم يكن يظن أن جملة قصيرة منها قادرة على أن تعيد ترتيب يومه، لكن قلبه كان قد تعلّم أن يقيس الزمن بمسافة رسائلها.

أما هي، فكانت في مكان آخر، تجلس أمام مكتبها، أوراق مبعثرة، وقلم معلق في يدها، حين دوّى صوت الهاتف على نحو غير مألوف.

رقم مجهول، لا يحمل اسمًا ولا ملامح، ظل يرنُّ بإصرار، حتى شعرت أن الصمت نفسه يلحّ عليها أن تجيب!

رفعت السماعة، فجاءها صوت رجولي، عميق، كأنه خرج من بئر قديمة:

- أهذه الآنسة إسبيرانزا؟

ترددت لحظة، ثم قالت بحذر:

- نعم، من المتحدث؟

- لستُ غريبًا كما تظنين، بل شخص يعرف أعظم أسرارك، وأظن أننا سنلتقي قريبًا جدًّا.

لكنها قبل أن تسأل أو تعترض، انقطع الخط، تاركًا في الأجواء فراغًا أثقل من أي إجابة!

وضعت الهاتف على الطاولة ببطء، وظلت تحدّق فيه ثم حاولت أن تستعيد نبرة الصوت، فتذكرت فيها شيئًا مألوفًا، لم تعرف إن كان من الماضي أو من حلم قديم.

***

خرج مشاري من بيته، والليل يفرش نفسه على الطرقات كوشاح ثقيل، والسماء صافية كأنها تُضمر وعدًا ليوم لا يشبه ما سبقه.

أخرج هاتفه من جيبه، وضغط اسمًا ظلَّ حيًّا في ذاكرته قبل ذاكرة الجهاز..

- أهلًا أحمد، أين أنت الليلة؟

جاءه صوت أحمد، مثقَّلًا بكسل النصف الأول من النوم:

- كنتُ أتهيأ لأنام، ما الأمر؟

- أريدك أن ترافقني إلى فنجان قهوة.

لم يسأله أحمد عن السبب، فوافق مثلما كان يوافق مشاري على مشاوريه الغبية دائمًا.

بعد قليل، كانا يسيران جنبًا إلى جنب نحو مقهى صغير في آخر الشارع، مقهى تحبُّه إسبيرانزا، فقال أحمد:

- لماذا مقهى EMLS تحديدًا؟

- لأنها تحبه..

كانت أصوات روّاد المقهى تتسرب في الخارج، وما إن وصلا حتى جلسا على طاولة قريبة من الزجاج، صوت آلة القهوة يختلط بوقع الخطوات، ورائحة البن تملأ المكان كأنها تستدعي الذكريات من أماكن بعيدة.

اقترب الباريستا، شاب قصير القامة، يحمل ابتسامة مدرّبة، وقال:

- ما رغبتكما؟

أجاب أحمد سريعًا:

- كوبان من القهوة السوداء، واجعلها قوية.

ابتسم الباريستا، وأدار جسده ليغيب خلف البار.

رفع مشاري بصره حين لمح رجلًا يجلس وحيدًا على طاولة في الزاوية البعيدة، ظهره للباب، لكنه كان يميل قليلًا بحيث يظهر نصف وجهه، كان يتحدث عبر الهاتف بصوت منخفض، بينما أصابعه تعبث بكوب لم يمسّه.

لم يكن في ملامحه ما يثير الريبة لأول وهلة، إلا تلك الندبة الرفيعة التي تشقّ جانب رقبته نزولًا، كخيط نسي أن يلتئم.

قال أحمد وهو يراقب الخارج من خلف الزجاج:

- هذا المقهى هادئ على غير عادته!

لكن مشاري لم يجبه، فقد كان بصره ما يزال ينسحب نحو الرجل، دون أن يدري لماذا..

عاد الباريستا، وضع الفنجانين على الطاولة، ثم ألقى نظرة عابرة نحو الزاوية قبل أن ينصرف، كأنه يعرف الجالس هناك.

ارتشف مشاري رشفته الأولى، ولم يلبث أن وضع كوبه على الطاولة حتى مدَّ يده إليه مرة ثانية، لكن أذنه التقطت بضع كلمات من حديث الرجل عبر الهاتف. لم يكن يفهم المعنى، لكن نبرة صوته أيقظت في داخله شعورًا غامضًا، شعورًا كمن يسمع لحنًا قديمًا لا يذكر متى سمعه!

t.me/books210

@BOOKS210

أقسى شعور، أن تفكر بقلب، يفكر بقلب آخر!

كان المساء قد أسدل ستاره على المدينة، والبيت يغمره ضوء أصفر دافئ يتسلل من أباجورة قديمة في زاوية الصالة. جلست أم إسبيرانزا على الكنبة الكبيرة، تمرر الخيوط بين أصابعها وهي تحيك وشاحًا، على الطاولة أمامها إبريق شاي بالنعناع، يرسل بخارًا خفيفًا إلى السقف.

أما الأخت مريم، ذات التسعة عشر ربيعًا، فقد كانت جالسة على الأرض، ترسم بفرشاة دقيقة لوحة لوجه امرأة غامضة الملامح، تتساقط من شعرها أزهار حمراء، وعلى كتفها كرة ثلج صغيرة.

كانت مريم تدرس الفنون التشكيلية في الجامعة، وكل حركة من يدها تقول إنها لا ترسم اللوحة فقط، إنما تحاول أن تقول شيئًا آخر، لأن الرسّام لا يرسم، إنما يصف شعورًا في داخله.

كانت إسبيرانزا تقف عند المطبخ، تمسك بفنجان شاي وتحدق في خطوط البخار التي تتلوى كأنها أفكارها. لم تشارك في حديث الأم ومريم، لكنها كانت تسمع كل كلمة: عن ارتفاع أسعار الخضار، وعن الجارة التي انتقلت فجأة إلى حيٍّ آخر، وعن قطة تقتحم الحديقة كل ليلة.

رفعت الأم رأسها فجأة، وقالت:

- ما بكِ شاردة منذ عدتِ من عملكِ؟

ابتسمت إسبيرانزا ابتسامة هادئة، وأجابت:

- لا شيء، إرهاق يوم طويل.

لكن مريم، وهي تميل برأسها قليلًا، قالت بنبرة نصف مازحة:

- بل تفكرين في شخص ما!

ضحكت الأم بهدوء وهزّت رأسها، ثم عادت إلى غرزها.

وضعت إسبيرانزا الفنجان على الطاولة، وسارت نحو النافذة. خارج الزجاج، كان الليل ساكنًا إلا من ضوء أعمدة الشارع الذي يلامس الأرصفة الحارة. مدّت يدها لتزيح الستارة قليلًا، فرأت انعكاس وجهها في الزجاج.. ومعه إحساس غامض، حين خُيِّل لها أن أحدًا يراقبها من بعيد!

أغمضت عينيها لحظة، ثم فتحتها على صوت رنين هاتفها المحمول فوق الطاولة. اقتربت، التقطته، فرأت على الشاشة رقمًا غريبًا لم يمر بها من قبل، توقفت أصابعها فوق زر الرد، كأنها تزن شيئًا أكبر من مكالمة عابرة...

مشت نحو زاوية الصالة، ثم رفعت الهاتف إلى أذنها ببطء، وقالت بصوت حذر:

- ألو؟

جاءها الرد من رجل بنبرته الهادئة، لكنها تحمل ثقلًا غريبًا:

- مساء الخير، هل أتحدث مع الآنسة إسبيرانزا؟

- نعم، من معي؟

- لستُ غريبًا، لكن ربما لم تتسنّ لنا المعرفة بعد.

نظرت إلى أمها ومريم، كانتا مشغولتين بعالمهما، فعادت تخاطبه:

- ما غرضك من الاتصال؟

- أردت أن أشكرك، على ما فعلته في قضية ذلك الشاب.

توقفت أنفاسها لحظة، كأن الكلمات سقطت على أرض غير متوقعة!

- أي شاب تقصد؟

- مشاري.. أنتِ لا تعرفينني، لكنني كنت قريبًا من تفاصيل ما جرى، وأعرف أن ما فعلته كان شجاعة قلَّ ما تجدها.

انعقد حاجباها، شعرت أن صوته يتسلل إليها كما يتسلل الغبار على الأسطح!

- ومن أين عرفتُك أو عرفتني؟

ضحك بخفة، وقال:

- هناك أشياء لا تُقال على الهاتف، لكنني أريد لقاءك، الأمر مهم.

ترددت، ثم قالت ببرود محسوب:

- هذا ليس وقتًا مناسبًا.

- غدًا إذًا، عند مقهى EMLS، الثالثة عصرًا، لن آخذ من وقتك سوى دقائق.

قبل أن ترد، كان الخط قد انقطع.

ظلت إسبيرانزا ممسكة بالهاتف، تحدق في الرقم المجهول، بينما صوت الرجل يظل يتردد في رأسها، كأن كل حرف منه كان يضع حجرًا جديدًا في طريق لم ترسمه بوعي.

مريم رفعت عينيها من لوحتها، وقالت وهي تبتسم بخبث:

- من كان؟

أجابت إسبيرانزا وهي تضع الهاتف على الطاولة:

- أحدٌ، يريد أن يراني، لعلها قضية جديدة.

***

في اليوم التالي
الساعة الثانية بعد الظهر
2:18 مساءً

دخلت إسبيرانزا إلى المقهى ثم رفعت هاتفها واتصلت بالرقم الذي وصلها.

لم تمر سوى ثوانٍ حتى دوّى رنين هاتف من طاولة معزولة في الزاوية. التفتت، فرأته جالسًا، ظهره إلى الحائط ونصف وجهه في الظل. رفع هاتفه وأوقف الرنين، وعيناه ثابتتان عليها.

تقدّمت حتى صارت قبالته. قال بهدوء:

- يبدو أنكِ وجدتِني.

جلست، ووضعت حقيبتها إلى جانبها:

- أأنت صاحب الاتصال؟

تمتم قائلًا:

- لنقل إنني من دعاكِ إلى هذا اللقاء.

- وما الغرض؟

- أن تسمعي ما لا يُقال على الهاتف.

- اسمك؟

ابتسم ابتسامة قصيرة لا تفشي شيئًا:

- الأسماء لاحقًا، إن شئتِ.

سكتت لحظة، ثم قالت:

- ولماذا هذا المقهى بالذات؟

حرّك فنجانه بين أصابعه:

- لأنكِ ترتاحين إليه.

رفعت حاجبها:

- وكيف عرفتَ ذلك؟

- من يراقب الأفكار، يعرف الأماكن.

ظلَّ صامتًا بعدها، وقد علمت أنها واقعة في تفاصيل أكبر منها. وحين قامت لتغادر، اكتفى بنظرة أطول من اللازم، ثم قال:

- سنلتقي، إذا أردتِ أنتِ ذلك.

خرجت وبقي الرقم بلا اسم، والرجل بلا تعريف، لكن أثره لم يخرج معها.

دعها تدلّل عليك، فمن غيرها يستحقُّ
الدلال؟!

دخلت إسبيرانزا البيت، وكانت أختها مريم جالسة على الأرض، تضع لوحتها أمامها، والفرشاة في يدها تتنقّل بين الأزرق القاتم والأحمر القاني. لم تلتفت حين دخلت إسبيرانزا، بل قالت وهي غارقة في الرسم:

- تأخرتِ اليوم.

وضعت إسبيرانزا حقيبتها على الطاولة، وجلست على الكنبة المقابلة. حدّقت قليلًا في اللوحة، كان فيها وجه امرأة مطموسة الملامح، لكن الأعين اتضحت بحدة غريبة، كأنها ترى من وراء العدم. فسألتها بهدوء:

- من هذه؟

أجابت مريم وهي تمسح اللون الزائد بقطعة قماش:

- لا أدري، ربما هي أحد لم يولد بعد، أو لم يعد موجودًا.

ابتسمت إسبيرانزا ابتسامة قصيرة، ثم مالت برأسها إلى الوراء، وهي تريد أن تسترخي، لكن صورة الرجل الغريب في المقهى عادت إليها من بين الظلال.

لاحظت مريم شرودها، فقالت بنبرة مازحة:

- أنتِ أيضًا، عندك وجه يشبه لوحتي هذه الليلة، نصف واضح ونصف ضائع!

وبينما إسبيرانزا تجادل أختها، كان مشاري يجلس في ديوانية قديمة مع رفاقه، لكنه لم يلبث في جلوسه ساكنًا، بل كان حاضرًا بجسده فقط. عيناه ساهمتان، كأنهما تنظران إلى شيء وراء الجدار.

قال أحد رفاقه "أنس" وهو يرمقه:

- ما بالك يا رجل؟ صامت على غير عادتك.

أجابه مشاري مبتسمًا ابتسامة قصيرة:

- لكل امرئ يوم يثقله أكثر من غيره.

ضحك "عمر" بجانبهما وقال ممازحًا:

- بل لعلك تنتظر شيئًا!

لم ينفِ مشاري ولم يؤكد، وإنما اكتفى بإيماءة غامضة. وفي تلك اللحظة، اهتزَّ هاتفه على الطاولة. مدَّ يده سريعًا، وألقى نظرة خاطفة، ثم استغرق في القراءة كأن الدنيا انكمشت في بضع كلمات!

من إسبيرانزا إلى مشاري

لا أعلم لِمَ يَثقل الأسبوع على صدري كلما ابتعدتَ عني، ثم يخفّ حين أكتب إليك. إنما الكتابة عندي سبيل راحة، بها أتنفّس، وبها أستعيد قدرتي على الثبات.

هذا الأسبوع أشدُّ وطأةً من الذي قبله، لكن عقلي يحملني إليك الآن، ليقول لك: إن الغياب لا يُبطل الحضور، وإن حضورك في قلبي باقٍ لا يغيب.

أغلق مشاري الهاتف ببطء، وأعاد وضعه في جيبه، لكنه لم يستطع أن يخفي رعشة ملامحه الفَرِحة.

مال صديقه أحمد إليه بصوت خافت لا يسمعه سواه:

- رسالة؟

قال مشاري وهو ينظر إلى الأرض:

- نعم، وكانت كافية.

لم يلبث مشاري أكثر في مكانه حتى نهض، وأخذ نفسه إلى الخارج، وأعاد قراءة رسالتها كأنها أرسلت للتو، ثم هام يكتب ما لا يُروى في سطور..

من مشاري إلى إسبيرانزا

حضورك لا يقاس باللقاء ولا بالمسافة، بل بهذا النبض الذي يسبقني كلما جاء اسمك في خاطري، إسبيرانزا، أنا أعيشك كل يوم، مثلما آخر يوم في عمري، لم يرزقني الله بشيء، لكنه رزقني بك، وأنتِ كل شيء.

أقسى ما يكون، أن تخون قلبًا لم يرَ الحياة
إلا بك.

أحيانًا تتمنى لو أن بعض الأيام تقف، لأنك تعلم أنها لن تُعاد بمثل ما كانت جميلة.

تقاذفت الرسائل الأسبوعية، وبات مشاري أكثر تعلقًا، وإسبيرانزا أكثر شعورًا، فلم يمر أسبوعًا واحدًا، إلا وكانت الرسائل تتهادى على القلوب، كما يتهادى الندى على الغصون، وقعا حدَّ الجنون، قدرهما واحد، بحتمية الأعين، بشهادة العشق المكنون، ليس بينهما سكون، جنون، ثم جنون!

أخذ مشاري من أيامه الأمان، وبقيَ فيها مشبَّعًا بتفاصيل لم يشأ أن تتغير، فبعد كل الذي مرَّ به، تمددت الراحة في عروقه كما لو أنه يشعر بمجرى سيرها بداخله، وذهب بعد أسابيع طويلة من نبض قلبه بالحب، إلى السوق، يبحث عن ملابس شتوية جديدة، قبل أن تتفشَّى السماء بالبرد القارص، كان السوق يعجُّ بالنداءات والخطوات، لكن، وهو وسط الزحام، وفي لحظة لم يعي أنه يعيشها، لمح أمامه إسبيرانزا!

كانت تبتسم له من بعيد، فما لبثت في تعجبها حتى اقتربت منه ولمعة أعينها تتلألأ في المكان، قالت بعد أن باتت أمامه مباشرة:

- لو تأخرنا قليلًا، لم يحدث هذا!

كأن القدر قد رتَّب لهما لقاءً لا يشبهه لقاء، فقال وهو يشتدُّ سعادةً:

- هل ينبغي أن ألقي بنفسي في قضية أخرى، حتى أراكِ كل يوم؟

ابتسمت كما لم تبتسم من قبل، وأخذت تهذِّب هندامها وهي تشتدُّ توترًا.

قالت:

- سأخبرك بسر صغير.

- أخبريني بأسرار كبيرة!

- سر واحد... لا اثنان، اتفقنا؟

حرّك رأسه راضيًا، فقالت وهي تحاول إخفاء توترها:

- والله، لو حدث ما حدث، لن تزول من دعائي أبدًا، فهذا الذي نحن فيه، لا يليق عليه إلا الدعاء الصادق.

اصفرّت عيناه، وابتلع نفسًا كاملًا في صدره من حديثها، فلم يرد حين سبقته وقالت كأنها تحاول أن تخفف عن ثقل أرهقها:

- مشاري، أريدك أن تعلم، حتى لو كنت مع شخص آخر، لن أنساك ما حييت.

تبدّلت مشاعره في وهلة صادمة، وانقبض قلبه في أضلعه، كيف تخبره بذلك، وهو يسعى للزواج منها؟

رآها طويلًا، كانت مبتسمة، لكنها تجهل أن ابتسامتها، طعنته وفجّرت شرايينه، فانخفض رأسه مخذولًا، ثم رفع عينيه عليها من جديد، ابتسم ابتسامة باردة، وهمّ أن يقول شيئًا، لكن الكلمات خانته، فدار بنفسه منها، ومشى حتى غاب بين جموع الناس، وهو يجرُّ قلبه منهزمًا مُلطخًا بأشدّ أنواع الخذلان.

لا أحد يتغيَّر فجأة، لا بُدَّ من سبب.

حين انقضى ذلك اللقاء الذي ترك في قلب مشاري أثرًا كالجرح الصامت، لم يكن ينتظر مجرد رسالة، بل كان ينتظر بزوغ كلمة تعيد ترتيب يقينه، مرَّ الأسبوع الأول وهو يعدُّ الأيام كما يعدُّ المسافر ليالي الغربة. لم يكن يرى إلا طيف كلماتها الأخيرة يعبر في ذاكرته، ويتساءل: هل كانت حقًّا تعني ما قالت؟

ومع نهاية الأسبوع الأول، حين لم تأتِ تلك الرسالة، التي اعتاد أن تشاطره مشاعرها الأسبوعية، شعر كأن صمتها قد صار جدارًا شفافًا بينه وبين ما كان، لكنه لم يفقد الأمل تمامًا، بل خبَّأه في صدره كجمرة تحت رماد الانتظار.

وكل صباح يشرق كان يهمس لنفسه: "لعل اليوم" لكن اليوم مضى، ثم الذي يليه، كأن الأيام كانت تتعمَّد أن تمرَّ لتختبر صبره!

لم يكن يريد أن يبادر، لأنه يخاف ألا يلقى إجابة، فيُهلك أكثر، لأن الانتظار ولو كان وهمًا أخف ألمًا على القلب من يقين لا يحتمله.

وفي بداية الأسبوع الثاني، جاء أحمد، كعادته الصادقة، ليجلس معه في الديوانية..

نظر إلى مشاري فور أن جلس، وبعد أن مسك فنجان القهوة، قال:

- ما بالك يا صاحبي؟ وجهك لا يخفي عني ما في صدرك!

ابتسم مشاري ابتسامة واهية وقال:

- لا شيء، فقط إسبيرانزا لم تعد ترد منذ أيام.

شرب أحمد قهوته، ثم هزَّ فنجانه لمشاري، وقال:

- هل تريدني أن أتواصل معها واسألها إن كان كل شيء بخير؟

فرد مشاري بعد أن جلس، بنبرة هادئة ولكن حازمة:

- لا، إن لم تأتِ الرسالة منها بطيب خاطرها، فأنا لا أريد أن أجبرها، إن كانت تذكرني، ستأتي.

***

ظل مشاري ينتظر، كمن ينتظر شيئًا يعلم أنه لن يأتي!

لكنه ومع مرور الأسبوع الثاني بدأ يفكر أن يسكب شيئًا من مشاعره في كلمات، لا ليطلب عودتها، بل لعلها حين تسمعها، تعرف ما لم يستدلع أن يقواه وجهًا لوجه.

لكنه كلما هام يكتب شيئًا، يجد نفسه عاجزًا، فبدأ يشعر أن الصمت لم يعد مجرد غياب صوتها، إنما رفيقه في خلوته يسير معه أينما كان، وفي نهاية ذلك الأسبوع، وبينما كان الليل يرخي ستائره، جلس مشاري أمام نافذته، يتأمل سماءً بعيدة، وقرر أن يخطو خطوة لم يكن يظن أنها ستأتي في حياته، لكن القدر كان ينسج خيوطه في الخفاء على حياة مشاري.

كانت الخطوة في ذهنه فقط، حتى تجرأ ذات مساء، وقرر أن يسكب ما يكتم قلبه في مقطع صغير، يتحدث فيه عن الخذلان، وعن الانتظار، دون أن يسمي أحدًا. كان يظن أنه يلقي برسالة في بحرٍ واسعٍ، لعلها تصل إلى من يعرفها دون أن يطرق بابها مباشرة، لعلها

تلين في فضاء الصابرين، لعلها تمسح على رأس الخائفين، ولعلّ ما في قلبه، يغزو قلوب العالمين.

صوّر المقطع، من غرفته الصغيرة المتواضعة، ونشره بعد أن فتح حسابًا جديدًا على منصة "تيك توك". لم يكن يعلم أن مجرد مقطعًا صغيرًا على منصة من منصات التواصل الاجتماعي سيجعله صوتًا يسمعه الكثيرون!

انتشر المقطع كالنار في الهشيم، ووصل إلى الآلاف ثم الملايين، وأصبح مشاري بين ليلة وضحاها صوتًا يطلبه الجمهور بالمزيد من مقاطع الفيديوهات، وكل هذا، وهو في فراشه نائمًا بعد أن وضع المقطع للعوام!

نهض من سباته بعد الفجر على أصوات رسائل كثيرة، فاعتقد أن إسبيرانزا حنّت أخيرًا وعادت إليه تتأسف على الغياب، لكنه تفاجئ بكم هائل من الإعجاب والرسائل على مقطع الفيديو الذي وضعه في منصة "التيك توك!".

وجد نفسه فجأة في عالم جديد، عالم لم يتوقعه، عالم صنع منه جسرًا من الضوء، وهو الذي كان يبحث فقط عن خيط نور واحد، فأخذ يقرأ كلّ التعليقات، وهو غير مُدرك لهذه اللحظة التي يعيشها، وكان يقول بعد كلّ تعليق يقرأه: هل أصبحت مشهورًا على حساب الخُذلان؟

ثم ابتسم ابتسامة باهتة وهو يرى عدد المشاهدات المرعب، وقال: أأنا فعلًا بتُّ مشهورًا؟

ثم لم يلبث في انبهاره ذاك حتى مضى النوم منه، وآثر على نفسه بالردّ على الأغلبية بالرغم من التعليقات المهولة، ثم ذهب في البرنامج إلى خانة: تعديل الملف الشخصي.

وكتب في السيرة الذاتية:

كاتب روائي قيد الإنشاء.

-تواجدي هُنا كان لسبب، وبات لسبب آخر-

تذكروا دائمًا:

لأن الله يدري، هذا يكفي.

من يريدك في حياته، لن يتغير عليك أبدًا.

قد ينشقُّ طريق حلمك أمامك، فتيأس لأن ما تسعى إليه قد تبخّر، ثم تعلم، بعد أن تُسلّم أمرك لله، بأن الله سبحانه قد اختار لك الأفضل، وأنت لا تعلم.

مرّت الأيام التالية على مشاري كأنها تحمل في جعبتها دهشة جديدة كل صباح، كان يستيقظ ليرى أرقامه ترتفع، تعليقًا فوق تعليق، ومقطعًا يعاد نشره حتى في أماكن لم يتخيل أن يصل إليها!

كل إشعار كان يطرق قلبه كجرس، يوقظه مما كان فيه، فبات لا ينتظر رسائل إسبيرانزا كل فجر، بل صار يتفقد رسائل الغرباء، كأن الله قد استبدل له الشخص بملايين، حتى يمسح على قلبه الحزين، فهو الذي كان يدعو ثم يبكي عند آمين، وينام وفي روحه بضع حنين، عبثًا للأيام كيف تحولت، وبات البعيد قريب، والقريب في فلك غير معلوم..

وجدوا الناس في كلماته عزاءً، وفي صوته سندًا، ومن بين تعليقات الناس، كان يجد من يقول له:

"لقد أنقذتني هذه الليلة".

وآخر يكتب: "كأنك تترجم ما في صدري".

فكان يقرأها بشغف، ويبتسم كأنّه لأول مرة يعرف أن للحزن فائدة!

ومع مرور كل يوم، كان حماسه يزداد، فأصبح يذهب إلى غرفته كلّ مساء، يضع هاتفه أمامه، يضيء المصباح الصغير، ويسجّل مقطعًا

آخر، لا يتكلف فيه ولا يزخرف، إنما يفتح قلبه على مصراعيه، ثم يترك للقدر أن يبعثر كلماته حيث يشاء.

وفي داخله، كان يتساءل: أتراني خُلقت لأكتب لها وحدها؟ أم أن الله قد أراد أن يجعل من رسالتي الخفيّة، رسالةً للعالمين؟

وكان على حاله هذا حتى مرّ أسبوع آخر، ولم يعد مشاري ذاك الشاب الذي يقضي لياليه مترقّبًا رسالة واحدة..

صار يقضيها بين آلاف الرسائل التي تصله من الغرباء، غرباء لم يعودوا غرباء بعد أن نسوه بصدق كلماته!

بات الناس يتداولون مقاطعه كما يتداولون أعلامهم الأخيرة، وصار صوته مألوفًا في الهواتف، في الجلسات، بل حتى في الطرقات..

ولم يعد يقابل أحمد في ديوانيته كالسابق إلا ويسمع من أحد الحاضرين:

- هذا صاحب المقطع الذي انتشر البارحة!

فيضحك أحمد، وينظر إلى مشاري بعينين تجمعان بين الفخر والاستغراب، ويسأله بخفّة:

- أرأيت عوض الله؟

فيبتسم له بأريحية، ومع أن في قلبه بقيت فجوة اسمها إسبيرانزا، فإن هذه الشهرة المفاجئة فتحت له بابًا آخر، بابًا لم يخطر له في بال.

بات يدوّن خواطره الصادقة، ويحوّلها إلى مقاطع قصيرة، فيتسابق الناس إلى سماعها.

وبعد أن تعدّت الأيام شهورًا تُحسب من العمر، ثبّت مشاري نفسه كمؤثر بين أكبر المؤثرين، وأخذ بعين الجدية كتابة روايته الجديدة، وبدأ يتلقى دعوات من حسابات أكبر، تطلب منه أن يظهر معهم في بث مباشر، أو أن يشاركهم مقطعًا قصيرًا.

كان يتردد أول الأمر، لكن شيئًا فشيئًا، أحس أن هذا طريق مرسوم له، طريق لم يختره بقدر ما اختاره هو.

ومع كل ليلة تنقضي، كان يسأل نفسه:

"لو علمت إسبيرانزا بما صرت عليه، هل كانت ستصمت كما صمتت؟ أم كانت سترى أن الله قد استبدلني بقدر أعظم مما تخيلت؟ هل هي بخير؟".

ومع أنّ الأيام قد رفعت اسم مشاري على ألسنة الناس، وجعلت لصورته موضعًا في قلوبهم، لم يكن ذلك المجد الطارئ إلا كسحابة تعبر، فتُبقي وراءها سماءً مثقلة بالغيوم.

كان يمشي في طرقات الحيّ، فيلقى من يبتسم له، ومن يمدُّ يده كأنّه يعرفه منذ دهر، وهو لا يعرفه، فيحار بين فرحٍ يرفعه، وغربةٍ تُسقطه. وكان يسمع أحدهم يقول:

"هذا هو صاحب المقاطع التي تُذيب القلوب".

فيطأطئ رأسه خجلًا، كأنما نُسب إليه ما لم يزعم.

وفي ليلةٍ من ليالي وحدته، جلس يتصفح ما كتب الناس، فإذا برسالة وحيدة تلمع بين الزحام؛ أقصر من أن نُطيل الحديث، ولكنّها أطول من الليل في أثرها:

"استمر، فإن صوتك يذكّرني بشخصٍ أعرفه".

قرأها، ثم أعاد قراءتها، حتى ارتجف قلبه، فالكلمة زلزلت في أعماقه رمادًا كان ساكنًا، ثم ألقى بنفسه إلى جوار الجدار، وأغمض عينيه، وقد أيقن أن ضجيج الشهرة ملأ يومه كله، لكنه لم يملأ تلك الفجوة الصغيرة في صدره، فجوة تحمل اسمًا واحدًا، اسمًا يأبى أن يُمحى، ولو علا فوقه ضوء العالمين!

نزل إلى الصالة بعد أن أبى النوم أن يقترب منه، فوجد أمّه جالسة تقرأ القرآن بصوت مرتفع، ينساب في البيت كأنه يغسل ما علق في الجدران من صخب الأيام. مشى إليها، قبّل رأسها، ثم جلس بجوارها ساكتًا، وهو يريد أن يحتمي بآيات الله من صخب الناس ومديحهم.

رفعت رأسها نحوه بعد قليل وقالت:

- لم أنسَ أنك في الغد ستكمل عامك السابع والعشرين، وأشهد الله أنّك في كل أعوامك كنت بارًا مخلصًا متواضعًا، حبيبي مشاري.

أخذ الهواء إلى صدره، ثم قال:

- يكفيني أنكِ راضية عني، أنتِ وأبي.

وما كاد يُكمِلُ كلماته حتى سمع وقع خطوات أبيه يقترب، يحمل في يده مسبحته، وعيناه تتابعان ابنه والأم بنظرة ممتزجة بين الحنو والوقار.

جلس بجوارهما، وقال وهو يضع يده على كتف مشاري:

- العمر يمضي يا ولدي، ولا يبقى من المرء إلا ما يكتبه الله له، بارك الله فيك، ولكن تذكّر أن الشهرة امتحان قبل أن تكون نعمة.

ابتسم مشاري لهما معًا، وأحس للحظة أن الأرض قد سكتت، وأن قلبه قد وجد ما لم تجده له الجماهير كلها وهو رضا والديه.

لكن ما لبث أن ارتجف صمت الصالة على نغمة هاتفه، يرنُّ بإصرار، يقطع سكينة اللحظة...

مدَّ يده مترددًا، نظر إلى الشاشة، فإذا برقم غريب يسطع أمامه، تردد لوهلة، ثم أجاب...

جاءه صوتٌ واثق، ممهور بالهيبة:

- السلام عليكم، نحن من فريق إعداد -بودكاست- صوت العرب، أحد أكبر المنابر في الوطن العربي.

سكت مشاري، عيناه على الأرض، وأذنه لا تكاد تصدّق ما تسمع!

واصل الصوت:

- تابعنا مقاطعك الأخيرة، ورأينا كيف أثّرت في الناس. نودُّ أن تستضيفك الحلقة القادمة، لتتحدّث عن نفسك.. وعن رسالتك.

لم يجب مشاري على الفور، شعر أن الكلمات تعثّرت في صدره!

قال أخيرًا بصوت خافت:

- شرف.. لم أتوقعه!

ابتسم الصوت على الطرف الآخر، ثم قال:

- الصدق الذي في صوتك هو الذي قادنا إليك. سنوافيك بالتفاصيل قريبًا.

وانتهت المكالمة.

بقي مشاري قابضًا على هاتفه، ينظر إلى شاشته المظلمة كما ينظر الغريب إلى مرآة تكشف وجهًا لم يعرفه من قبل..

رفع رأسه نحو أمّه، فوجد في عينيها نورًا لا يشبه إلا الدعاء، ونحو أبيه، فوجد يده تعبث بمسبحته، في تلك اللحظة، أحس أن غرفته الصغيرة لم تعد تكفيه، وأن الله يفتح له بابًا نحو عالم أوسع.

قال أبوه:

- ما بك مرتبكًا؟!

تلعثم مشاري بالكلمات وهو يقول:

- أتعرف.. أتعرف بودكاست صوت العرب؟

قال أبوه بثقة:

- ومن لا يعرفه!

- سأكون أنا الضيف بالحلقة القادمة!

ابتهج أبوه كما لو أن الدنيا بجمالها وقعت على صدره، فانهالت من أم مشاري الدعوات:

- تبارك الرحمن! تبارك الرحمن.. الله يسخر لك خلقه يا رب العالمين!

t.me/books210

لن أنساك، ولو وضعوني على حبل المشنقة
لأنساك.

بعد ثلاثة أيام

الجمعة

الساعة 5:48 مساءً

جلس مشاري في الاستوديو لأول مرة، تحيط به الأضواء والميكروفونات، لكن قلبه كان أهدأ مما توقع. أمامه فارس، بابتسامته الإعلامية المألوفة، وبنبرته التي يعرف كيف تُدخل المستمع في دفء الكلام، كان أشدُّ شهرةً من غيره في مجاله..

بدأ فارس حديثه قائلًا:

- مشاري.. ملايين تابعوا مقاطعك، ولم تكن قبل أشهر سوى شاب يكتب من غرفته الصغيرة. ماذا يعني لك هذا التحول؟

ابتسم مشاري، واعتدل في جلوسه، ثم أجاب بهدوء:

- لم أكن أبحث عن الناس، كنت أبحث عن طمأنينة في نفسي. لكن حين شاركت ما أشعر به، وجدت أن القلوب تتشابه.. ما يؤلمنا واحد، وما يواسينا واحد.

سكت فارس لحظة، ثم قال:

- لكنك لم تُقدِّم نفسك كخبير أو كواعظ، بل كإنسان يفشي بما في داخله.. هل هذا سرُّ وصولك للناس؟

أطرق مشاري برأسه، وأخذ يلعب بساعته الصفراء، ثم قال:

- أظن أن الناس سئموا من الكلمات المزيَّنة، أرادوا أن يسمعوا أحدًا يقول ما يقولونه في سرّهم. حين كتبت، لم أكتب لأني أعرف، بل كتبت لأنني أتألم.. ولأنني أؤمن أن الله قريب من المكسورين، والصابرين.

أضاء وجه فارس، ثم سأل بنبرة أعمق:

- قلت مرة في مقطع: "أحيانًا، يُبذلُ الله كل شيء في حياتك دون أن تفهم، حتى تعرف في النهاية أنه لم يتركك يومًا"... ماذا تقصد؟

تنهد مشاري وقال:

- كنت أظن أنني مهجور، وأن الله ابتعد عني، لكن حين نظرت إلى الوراء، اكتشفت أن كل انكسار كان جسرًا لرحمة، وكل تأخير كان بابًا لوقت أفضل. نحن لا نفهم الحكمة لحظة الألم، لكننا نراها حين يكتمل الطريق.

ساد الاستوديو صمتٌ قصيرٌ، حتى إن المخرج خلف الزجاج أشار بيده أن "دعوه يتكلم أكثر".

قال فارس مبتسمًا:

- مشاري.. ماذا تقول اليوم للإنسان الذي يستمع إليك الآن، وهو يمرُّ بليلة ثقيلة يظن أنها لن تنتهي؟

رفع مشاري عينيه نحو الميكروفون، كأنه يخاطب قلبًا لا يعرفه:

- أقول له: لا تنسَ أن الليل مهما طال، فإن الصبح مكتوب. وأن ربك الذي يسمع همسك الآن.. لن يتركك، حتى لو ظننت أنه فعل، الله أرحم من نفسك على نفسك.

***

خرج مشاري من الاستوديو، بعد أن انتهى اللقاء، وانتهت ساعة مرّت كنسمة عابرة، صافحه فارس قبل أن يركب سيارته، وقال بابتسامته المعروفة بالإعلام:

- كان لقاءً ممتعًا، ستُنشر الحلقة غدًا، ووقتها سترى بنفسك الصدى.

في تلك الليلة، نام مشاري كمن يتهيأ لاستقبال ضيف غامض. لم يكن يعرف ما الذي ينتظره، لكنه أحسّ أن الغد لن يكون عاديًا.

وحين جاء المساء التالي، نُشرت الحلقة على المنصات، فتدافعت المقاطع المقتطعة منها كالسيل!

وما هي إلا ساعات حتى امتلأت الشاشات بصوته، تُعاد كأنها رسالة شخصية لكل مستمع.

كان أحمد أوّل من طرق بابه، هاتفه بيده، يقول باندهاش:

- مشاري! انظر.. كل الناس يعيدون كلماتك!

ثم جلس بجانبه يقرأ التعليقات بصوت مرتفع، بعضها فيه فرح، وبعضها فيه بكاء.

قال أحدهم: "حلقتك أعادت لي الأمل بعد أن فقدته".

وقالت أخرى: "كأنك حكيت ما عجزت عن قوله".

جلس مشاري يسمع ويرى، وقد بدا كأنه يطلُّ على دنيا جديدة، دنيا لم يطرق بابها من قبل، لكنها فتحت له أبوابها دفعة واحدة.

وفي اليوم التالي، خرج إلى السوق، فإذا بشاب يمرُّ به، ثم يعود ليقول لصاحبه:

- هذا هو مشاري! صاحب الحلقة..

فيبتسم الاثنان، بينما يكتفي مشاري بخفض رأسه تواضعًا، وقد شعر أن الله قد جعل من كلماته عزاءً لقلوب كثيرة، وطمأنينة لكلِّ الناس.

لكن حين حلَّ المساء، جلس مشاري مع أحمد في الديوانية، وكان أحمد يتصفح هاتفه، حتى توقف فجأة وقال وهو يمدُّه لمشاري:

- اسمع.. يبدو أن شهرتك لم تقتصر على المديح.

أخذ مشاري الهاتف، فإذا بمقطع لرجل يتحدث من خلف كاميرا هاتفه، بنبرة مليئة بالسخرية:

"مشاري؟ مجرد مؤثر يبيع كلامًا منمقًا، يترجم المشاعر بألفاظ سهلة فيظن الناس أنه حكيم! هذه موجة عابرة، وسرعان ما تزول، مثله مثل غيره".

أسفل الفيديو كانت التعليقات مشتعلة، بعضهم يصفق للرجل ويقول: "أخيرًا أحد كشفه"، وآخرون يردُّون عليه بحرارة: "غيران لأنه لا يستطيع أن يصل مثلما وصل مشاري".

ضحك أحمد وهو يقرأ بعض الردود بصوت مرتفع، ثم التفت إلى مشاري:

- يا أخي، حتى أعداؤك يلمعونك من غير قصد.

أعاد مشاري الهاتف إلى الطاولة، ارتشف من قهوته ببطء، وقال مبتسمًا ابتسامة واثقة:

- الضوء لا يأتي وحده.. دائمًا يتبعه ظل.

هزَّ أحمد رأسه موافقًا، وقال:

- المهم، لا تجعلهم يسرقون فرحتك، الذين يحبونك أكثر.

ابتسم مشاري مرة أخرى، وعاد ينظر إلى هاتفه. فشعر أن هذه الليلة علّمته شيئًا جديدًا: أن الشهرة ليست ضوءًا صافيًا، بل خليط من مدح وذم، ووراء كل كلمة حب، كلمة أخرى تنتظر أن تطعنه.

حتى لو لم يكن هناك أمل، كُن أملي الأخير.

الأيام لا تمشي، إنما تزحف زحفًا على القلوب، تُبدّل الوجوه وتُخفي الملامح، حتى يُخيَّل للمرء أن عمره يتفتّت بين أصابعه كما يتفتّت الرمل بين الكفّين.

ظلّ مشاري في دوران الأرض: ينهض على وقع رسائل الناس، ويبيت على ضجيج المديح والذم، حتى غدا كل يوم نسخةً من آخر.. يختلف فيه التاريخ وتتشابه فيه الأحاسيس، كأن الزمن لم يعد يُقاس بالساعات إنما بما تتركه كلماته في قلوب السامعين.

ثم فجأة... التفت، فإذا بالسنوات قد انزلقت من بين يديه كما تنزلق القافلة في صحراء، لا يسمع لها وقعًا إلا حين تغيب.

استدار حول نفسه ليجد أنه لم يعد ابن السابعة والعشرين كما كان يذكر، بل رجلًا في الثلاثين، تغيّر في ملامحه بعض الشيء، لكن قلبه ظلّ يحمل ذات النبض.

صار اسمه مألوفًا في البيوت، يُذكر بين المجالس كأنه جار قديم، وصوته يُبَثُّ في المقاهي والحلقات، حتى إذا حاول أن يختبئ من الناس، لم يعد يملك أن يختبئ من ذاته.

غير أن قلبه، على كل ما ناله، ظلّ يخفي ثُقبًا صغيرًا. ثُقبًا لم تستطع الأضواء أن تملأه، ولا التصفيق أن يسدّه. ثُقبًا صامتًا، كُتب له أن ينتظر لحظة بعينها، لا يدري متى ولا كيف تأتي.

***

في ليلة ساكنة، جلس مشاري أمام مكتبه، يحدّق في هاتفه، يقرأ التعليقات كما اعتاد. كانت عيناه تلتقط الكلمات، لكن قلبه شارد كمن يفتش عن شيء بين السطور.

رفع رأسه قليلًا، فرأى ساعة الحائط معلّقة فوق الجدار، كانت عقاربها واقفة عند الحادية عشرة وإحدى عشرة دقيقة، لا تتحرك، كأنها أُصيبت بالذهول..

ابتسم في نفسه وقال: لعل البطارية فارغة.

لكن حين مدَّ يده إلى هاتفه، وجد الشاشة تُظهر الرقم ذاته: 11:11.

حدّق فيها طويلًا، كأن الزمن قد قرر أن يعبث به، أو أن يُعطيه إشارة لا يفهم معناها!

ظلَّ ينظر إلى العقارب المتيبسة، وإلى أرقام الهاتف الجامدة، حتى سمع فجأة أذان الفجر من بعيد يشقُّ السكون! انتفض واقفًا، كأن الصوت أيقظه من غيبوبة، وقال هامسًا: كيف يمضي الفجر والوقت واقف؟

عاد ببصره إلى الهاتف، فوجد الدقائق تتحرك من جديد، كأنها لم تتوقف قط...

جلس مكانه وهو يضع كفَّه على جبينه، وقد تسلَّل إلى داخله يقين غامض: أن الزمن لا يرحم، يمضي في صمتٍ حتى إذا التفتَّ إليه، وجدت أنك قد عبرت سنوات، دون أن تدري كيف.

جلس مشاري بعد أن تحركت عقارب الساعة من جديد، يتأمل في صمتٍ طويل.

وحين ارتفع الأذان من بعيد، نهض، توضأ، وصلّى الفجر. أحسّ بثقل في صدره قد انزاح قليلًا، كأن الركعتين غسلت عنه غبار السنين.

عاد إلى غرفته بخطى وادعة، جلس على طرف السرير، أخذ هاتفه بين يديه، لا يريد شيئًا إلا أن يضعه جانبًا وينام، لكن الشاشة أضاءت فجأة في الظلام، ورسالة وحيدة ظهرت أمام عينيه..

الرقم كان غريبًا، لم يرَه من قبل..

قرأ ما فيه مرارًا، وكلما أعاد قراءته ازداد قلبه ارتجافًا:

"إذا أنت حي، اتصل".

حدّق في الحروف كأنها شقّت له جدارًا بين عالمين. وشعر أن الغرفة قد ضاقت عليه!

تردّد طويلًا، أصابعه ترتجف فوق الشاشة. ثم في لحظة حاسمة، ضغط زرّ الاتصال، فما إن رفع الهاتف إلى أذنه، حتى باغته صوت بكاء... بكاء يعرفه رغم أنف الغياب!

- مشاري!

تجمّد في مكانه، اختنق صوته:

- إسبيرانزا؟

قالت بصوت يركض بين الدموع، متقطعًا كأنه ينهار بين كلمة وأخرى:

- أرجوك.. أعطني وقتي.. أعلم أنّي ظلمتك وغادرتك ثلاث سنين.. ولكن، والله، ما من أحدٍ ينقذني غيرك!

ارتجف قلبه، أراد أن يسألها، أن يفهم، ولكنّها سبقت كلماته:

- زوجي.. سجنني! ليس مجازًا.. بل سجنًا حقيقيًا! غرفة أعدّت خصيصًا لي.. جدرانها تُطبق عليّ ليل نهار.. مشاري، خلّصني، فما لي بعد الله سواك!

رفع صوته وهو يحاول أن يهدّئها:

- إسبيرانزا.. تمهّلي! أين أنتِ؟ دلّيني!

لكن الصوت انقطع فجأة، وساد الصمت، وبات الهاتف يردّد العبارة القاتلة:

-الجهاز مغلق أو خارج نطاق التغطية-

ظلّ مشاري شاخصًا في الفراغ، والهاتف بين يديه يبرد شيئًا فشيئًا، فيما أذنه ما تزال تسمع البكاء، وصدره يضيق كأن الغرفة أُفرغت من الهواء!

ماذا لو: الذي سجن أيامك، وجعل قلبك
يُقتل من الاشتياق، يطلب إنقاذك..
هل ستنقذه؟

أعاد مشاري الاتصال عشرات المرّات، والردُّ واحد: الهاتف مغلق.

جلس على الكرسي متخشبًا، عيناه تترقرقان بملحها، لكن تقسمات وجهه تظل متماسكة، مزيج من وجع الرجال وغضبهم حين تعجز الكلمات!

مضت الدقائق بطيئة، وهو يبحث عن طريقة يصل بها إلى إسبيرانزا، فمن أنقذته في أصعب أيامه لن يتركها تتصارع أيامها الصعبة وحيدة!

كل دقيقة تجرُّ خلفها أثقالها، حتى اهتز الهاتف فجأة، رقم آخر مجهول، فتحه بلهفة، فإذا برسالة يتيمة عبارة عن:

إحداثيات موقع.

حدّق طويلًا في الخريطة، لم يعرف المكان ولا الطريق إليه، لكنه أحس أن قدميه قد سبقتاه، وأن السيارة تنتظر أوامره. نهض كمن يدفعه شيء خفيٌّ، فالتقط مفاتيحه، وخرج.

كانت الشوارع صامتة إلا من أزيز أعمدة الإنارة، وبات نور الفجرِ يشقُّ الصباح في أوّله، والمدينة تنام في غفلة لا تعنيه. أدار محرك السيارة، فانطلقت به العجلات وكان الطريق ممتدًّا أمامه، لكن داخله يضيق. كل لوحة إرشادية، كل منعطف، هو كهف يجهله تمامًا!

❁❁❁

توقّف مشاري عند النقطة التي دلّته عليها الرسالة، كانت الأرض براحًا ممتدًا من التراب، لا بيت يلوح، ولا سيارة تمرُّ، ولا نفسٌ يقطع صمت المكان.

جلس في سيارته خمس دقائق.. ثم عشرًا.. ثم ربع ساعة، يحدِّق في الأفق المشرق ببطء، والسماء بدأت تمسح سوادها بزُرقةٍ خفيفة.

تنهّد وهو يضع يده على مفتاح السيارة ليعود. فإذا بضوءٍ خاطف يرتسم في المرآة الخلفية، لم يلتفت إلا بعد أن ارتجَّت سيارته بضربةٍ قاسية من الخلف!

قفز قلبه، فتح الباب بسرعة، وخرج يتلمَّس الصدمة، فإذا بالسيارة التي اصطدمت به تقف خلفه، أبوابها مغلقة، وأضواؤها مشتعلة.

لم يكد يستوعب ما يحدث، حتى انفتح الباب الأمامي ببطء، ونزلت منه إسبيرانزا!

وقف مشاري كالمذهول، الكلمات تتساقط من فمه قبل أن يلتقطها عقله:

- تقولين إن زوجكِ ساجنكِ وتطلبين إنقاذكِ! فكيف أقف الآن أمامكِ؟!

كانت تنظر إليه بعينين غارقتين، لم تنطق، فقط تقدَّمت خطوتين، ثم خارت قواها وسقطت مغشيًا عليها!

مدَّ يده وهو يلتقط رأسها قبل أن يهوي إلى التراب، ثم انحنى معها يصيح بصوت يشتدُّ ارتجافًا:

- إسبيرانزا! ردي عليَّ!

رفع مشاري تلك التي غرقت في تفاصيل يجهلها بيديه المرتجفتين، ثم حملها إلى المقعد المجاور. شدَّ حزام الأمان عليها بسرعة كأنه يحرس روحها، ثم قفز إلى مقعده وضغط على دواسة البنزين بكل ما أوتي. انطلقت السيارة تشقُّ الصمت، وأضواء الأعمدة تتسابق على زجاجها الأمامي.

كان يلتفت إليها بين الحين والآخر، يهمس باسمها، وصوته يغلي بالرجاء:

- إسبيرانزا.. تماسكي!

عيناها كانتا مغمضتين، لكن دمعة سالت على وجنتها تُعلن شهادة الحياة، مدَّ يده المرتجفة ليمسحها، لكنَّه استغفر ربَّه لأنها لا تحلُّ له، ثم عاد ليقبض على المقود بيدين يضغطهما الغضب والخوف معًا.

شوارع المدينة في تلك الساعة بدت خالية، وبات العالم كله ينام إلا قلبه. لم يسمع سوى صرير العجلات وصوت أنفاسه المتقطعة. اقترب من المستشفى، واللافتة البيضاء ظهرت أمامه كخلاص منتظر!

لكن قبل أن ينعطف إلى بوابة الطوارئ، سمعها تأنُّ بجانبه. التفت إليها بسرعة، فرأى عينيها تفتحان ببطء، شفتاها تتحركان كأنها تريد أن تقول شيئًا. اقترب بوجهه وهو يكاد يفقد سيطرته على المقود:

- قولي لي! ماذا جرى؟!

ارتجف صوتها وهي تبكي، لا تقوى على السيطرة على نفسها:

- مشاري.. إن ذكرتُ اسمه؟ أخشى أن يقتلوك أنت أيضًا!

شهق شهقة كادت تخنقه، لكنه لم يوقف السيارة، بل زاد سرعتها نحو البوابة، في حين كل كلمة نطقتها كانت العجلات تشتدّ اندفاعًا أكثر.

وقبل أن يغيب صوتها مرة أخرى، تمتمت وهي تغطي وجهها بكفيها:

- هو السبب.. في كل شيء.

تردَّد قلب مشاري بين أن ينعطف إلى بوابة الطوارئ التي لاحت أمامه، أو يستمر كما هو، لكنَّها رفعت رأسها قليلًا، وصوتها يخرج متقطِّعًا كأنَّه آخر ما تبقَّى لها من قوَّة:

- لا... لا تأخذني إلى المستشفى، إن دخلته ضعتُ منك.. أرجوك، خذني إلى مكانٍ آمن..

كان يسمع أنفاسها تتقطع، فتضاعف خوفه عليها، ومع ذلك أحس أن كلماتها ليست رجاءً فقط، بل وصيَّة!

قال:

- أين؟ قولي لي...

أشارت بضعف إلى الأمام، ثم أغمضت عينيها وهي تُسلِّم القرار له، فانحرف عن طريق المستشفى، تاركًا الضوء الأبيض خلفه، واتجه نحو المدينة النائمة.

لم يجد إلا بيت الجد، البيت الذي تركه منذ سنين، بيتٌ لم يعد يسكنه أحد، جدرانه مشققة، لكن بابه ما يزال قائمًا، وأسراره لا يعرفها أحد.

كان يشعر أن هذا المكان وحده، سيخفيها عن كل عين.

التفت إليها مرة أخرى، رأى وجهها يضيء رغم التعب، شاحبًا، لكنَّه ما يزال أجمل سرٍّ عرفه قلبه، فالذي يحبُّ يرى العيوب كمالًا بمن يحب. تمتم وهو يعاهدها:

- ستنجين.. ولو على حسابي!

وما كان في ذلك حتى بلغ بيت الجد، البيت الذي هجره الناس، فبقي كأثرٍ من زمنٍ لم يَعُد، في بابه الذي يئنُّ مع كل نفحة ريح، والنوافذ مثل أعين أطفأها العمر.

أوقف السيارة أمامه، والتفت نحو إسبيرانزا، كانت جالسة كطيفٍ بين النوم والصحو، لا حراك إلا أنفاس تتردَّد متقطِّعة. فقال وهو يخاطب روحه قبلها:

- هنا، لن يراكِ أحد، أنتِ تحت حمايتي.

فتحت عينيها ببطء، نظرت إلى الباب العتيق بنظرةٍ غائمة، ثم همست بصوتٍ خافتٍ متهدِّج:

- أنت أمان قلبي.

ارتجف قلبه لهذه الكلمة، شعر أنها أهدته أمانًا لم يصنعه بيديه. ابتسم ابتسامةً قصيرة، ثم نزل من السيارة، فتح الباب الصدئ، صريره دوّى في السكون كأنّه يعلن قدوم غريب إلى بيتٍ نائم. عاد إليها، فأشار إليها أن تنهض، لكنها لم تتحرّك، فجلس لحظة يستجمع قلقه، ثم قال بنبرة حاسمة ممزوجة بالحنوّ:

- ستدخلين، ولو حملتك هذه الجدران على كتفيها.

قالت بصوت لم يسمعه بعد أن مالت رجلها نحو الوقوف:

- سأكون لك، إن ضاق صدرك بالحزن!

ثم نهضت بخطواتٍ متثاقلة، وعيناها تتهرّبان من عينيه، فسار بجانبها حتى اجتازا العتبة، لكن رائحة الغبار التي تمتزج برطوبة الجدران كانت طاغية، والأثاث يقف مثلما تقف تماثيل لسنواتٍ بائدة. أشعل المصباح المعلّق، فاهتزّ نوره وارتعش كشمعةٍ في ريح.

أجلسها على مقعدٍ خشبي ما زال يحتمل الجلوس، ثم وقف أمامها برهة يراقب أنفاسها التي أخذت تستقيم شيئًا فشيئًا.

قال وهو يمسح غبار مقعدٍ:

- لعلّ هذا الخراب يحميكِ أكثر مما يحميكِ العمر كله.

رفعت رأسها نحوه، فلم تقل كلمة، لكن في عينيها بريقٌ من امتنانٍ يترقرق، كأنما تشكره على صمته أكثر من كلامه.

❁❁❁

جلست إسبيرانزا على الأريكة القديمة، مائلة برأسها إلى الخلف، عيناها نصف مغمضتين، والنهك بادٍ على ملامحها. لم تتكلم، ولم يسألها مشاري، فقد أيقن أن الألم نفسه يتكلم عنها.

خرج بخطى سريعة، تركها في سكونها، ثم مضى إلى الشارع.

المتاجر القريبة كانت توشك أن تُغلق، لكنه أصرّ أن يلتقط لها ما تحتاج إليه، لأنه مؤمن أن عنايته بها باتت فرضًا لا يسقط.

اشترى بعض الخبز الطازج، وقنينة ماء باردة، وعلبة من الجبن، ثم توقف عند محل صغير للحلويات، فتأمل الكعك الموضوع خلف الزجاج.

أحس للحظة أنه طفل يختار هدية لأمه، ثم ابتسم، وأخذ قالبًا صغيرًا مزينًا بالفراولة.

عاد إلى البيت، وألقى بالأكياس على الطاولة التي مسحها بالمناديل، ثم نظر إلى إسبيرانزا، فوجدها ما تزال غارقة في صمتها.

أخذ يضع الأشياء أمامها واحدًا تلو الآخر، ثم قال بهدوء:

- أعددت لكِ بعض ما قد يعيد إليكِ قوتكِ، لن أتركك تجوعين هذه الليلة.

نظرت إلى الأغراض، دمعة لمعت عند طرف عينها، لكنها سرعان ما مسحتها بيدها. لم تقل شكرًا، ولم تبتسم، لكن الصمت الذي ساد بينهما كان أوفى من الكلام.

جلس قبالتها، وهو يحمل قطعة الكعك، فدفعها نحوها، وقال:

- الليالي الثقيلة تحتاج إلى شيء حلو، حتى لو كان صغيرًا.

ثم أمعن النظر إلى إسبيرانزا، وقال:

- أعلم أنه ليس هناك شيء حلو نفسكِ!

ضحكت إسبيرانزا رغم التعب، وقالت وهي تمدُّ يدها لتأخذ الكعك:

- مُراوغ يا مشاري حتى في مديحك.

- أحبكِ...

ثم أخذ نفسًا إلى صدره، وأكمل:

- لم أتخيل أنني سأقولها أمامكِ مباشرةً طوال عمري، لكن عندما يصبح الحب فوق المقدرة؟ لا بدَّ أن أقولها: أحبكِ، أحبكِ أكثر مما ينبغي إسبيرانزا!

رأته محلولًا، ثم بكت وتبلل وجهها، فأخذت تشهق في عويلها وتقول:

- لكنني... خذلتك يا مشاري!

- لا، لم تخذليني قط.. أنا الذي كان يجب عليَّ أن أحافظ عليكِ أكثر مما كان!

ثم سبقها قبل تتفوُّه بكلمة:

- دعي عنكِ هذا الآن، استجمعي قواكِ، وأخبريني من المتسبب بكل فوضاكِ؟

قالت وهي تمسح دموعها بكلتا يديها:

- أخاف أن أخبرك باسمه، فيأتيك مثلما أتاني كالشبح!

نهض من جلوسه، وأخذ يضرب الطاولة بكل قوَّته غاضبًا، فكان صوته يتناثر مع كل ضربة وهو يقول:

- من.. الذي.. فعل.. بحبيبتي كل هذا! أقسم لكِ بأنني سأجعله ترابًا!

كانت إسبيرانزا تحدِّق إلى مشاري بكلِّ خوف من ردة فعله وغضبه، لم تعهده بهذا الشكل قط، فنهضت نحوه وهي ترفع يديها متوجهةً إليه، وقالت:

- مشاري، مشاري حبيبي.. اهدأ!

- أخبريني...

- اسمه فارس، اهدأ.. سأخبرك بكلِّ التفاصيل، لا تنفعل!

مشى نحو الكرسي المتأرجح، ولم يهتم لكل الأوساخ التي عليه، فجلس وهو يتنفس بسرعة، ثم سكن شيئًا فشيئًا، نظر إلى إسبيرانزا بابتسامة أعينه، وقال:

- هدأت، أخبريني بالتفاصيل، من هذا فارس؟

جلست على الكرسي الذي يجاوره، فهي لم تهتم لما لم يهتم له أيضًا، وقالت:

- فارس الذي خدعني كي أتزوَّجه..

- كيف؟

- أتعرف المذيع المشهور فارس سلطان؟

استغرب مشاري كثيرًا، وقال:

- أجل، وقد استضافني في حلقة قبل سنتين ونصف تقريبًا، ما به؟

- استضافك!

- أجل.. في بودكاست صوت العرب!

انصعقت إسبيرانزا مما تسمع، وأخذ الظلام يُحلِّق في عقلها.

قالت:

- فارس سلطان.. ليس مجرد مذيع، إنما زوجي.

لم يلبث مشاري في سكونه حتى نهض من جلوسه مرتعبًا، وهو يشير إليها ويقول:

- هذا المحترم هو من فعل بكِ كل هذا!

سخرت إسبيرانزا من كلمة محترم حين قالت:

- محترم؟

ثم ضحكت بخِفَّة، وقالت:

- أتعلم لِمَ تزوجني؟

- لِمَ؟

- هو من قتل جنى، وعندما علم أنني علمت من خلال أسئلتي الكثيرة عنه وعنها، جعل من إحدى الغرف سجنًا لي!

- هو من قتل جنى!

ثم ساد الصمت، صمت ثقيل كجدارٍ يسقط بينهما، لا يُسمع فيه سوى ارتجاف أنفاسها، وارتطام قلبه وهو يوشك أن ينفجر!

سأكون لك حربًا في وجه من أرادك أن
تنكسر.

ارتدت الشمس ثوبها الأول، وما استقامت حتى أخذ ضوؤها ينساب من بين شقوق النوافذ القديمة.

جلس مشاري قبالة إسبيرانزا، وضع أمامها صحنًا فيه خبز وقهوة سوداء، لم يطل الصمت حتى قال:

- أريد أن أفهم، كيف خرجتِ من يده؟

رفعت رأسها ببطء، عيناها مثقلتان بالسهر، وقالت:

- لم أخرج وحدي.. هناك من ساعدني.

ضغط مشاري قبضته، وهو مشحونٌ بأن يردَّ اعتبار إسبيرانزا لها، صوته انخفض لكنه ظلَّ ثابتًا:

- من؟

ترددت قليلًا، ثم أجابت بصوت يكاد لا يسمع:

- امرأة.. ظهرت فجأة، وأخبرتني أن الوقت قد حان. تركت الباب مواربًا، ثم غابت كأنها لم تكن!

سألها مشدودًا:

- أتثقين بها؟ تعرفينها؟

- لم يكن لي خيار يا مشاري، لا أعرفها حتى أثق بها، لكن ربما كانت تعمل عنده، وربما أرادت أن تنتقم منه.. لم أسأل، لم أجرؤ، كل ما أردته أن أخرج!

قال بنبرة مستغربة:

- كيف له أن يخرج للإعلام بإباقة وهو أنجس خلق الله!

ثم سكت برهةً، وعاد يسأل ليفهم:

- وما الذي يربط تلك المرأة بفارس؟

هزَّت رأسها، كأنها تقرأ في داخله:

- كل شيء، فارس لا يعمل وحده.

رفعت يدها إلى فنجان القهوة، ارتشفت رشفة صغيرة، ثم قالت:

- البارحة فقط استطعت أن أمدَّ يدي إلى الحرية، واليوم... لا أملك سوى أن أثق بك.

مال مشاري إلى الأمام، وصوته يخرج كالوعد:

- كفي عن الخوف يا إسبيرانزا، أنتِ بين يدي الآن، ولن يمسكِ سوء!

رفعت رأسها، ورأت فيه ثباتًا لم تعهده إلا في أشد رجال الأرض قوة، فقالت:

- أثق بك يا مشاري.. أكثر من نفسي.

اقترب قليلًا، وأمسك فنجانه، وقال:

- ما دمتُ حيًّا، فلن تلمسكِ يد فارس، ولن تُطوى صفحة جنى دون أن يُكشف الحق.

سالت من عيني إسبيرانزا دمعة بغير قصد، فلم تمسحها، كأنها تقول له بصمتها: "أنتَ آخر الدروع".

نهض، واتجه نحو النافذة، ثم التفت إليها، وصوته أكثر رسوخًا:

- من هذه اللحظة، لن تكوني وحدك. ستقولين لي كل شيء، وأنا من سيتولّى الباقي.

أطرقت برأسها، ثم همست:

- إذًا اسمع، سأفتح لك الباب الذي حُبست خلفه ثلاث سنوات.

في العودة إلى الوراء
اليوم الذي هربت فيه إسبيرانزا.

t.me/books210

كان فارس يجلس في مكتبه الفخم، مكتب أشبه باستوديو إذاعي أكثر منه غرفة عمل. بجدار زجاجي يطلُّ على المدينة. وكان على الطاولة أمامه ميكروفون، وسماعات باهظة، وأوراق متناثرة، لكنها ليست أوراق عمل، بل رسائل من معجبين، وإعلانات، ومواعيد مقابلات.

أمسك كوب قهوته، ارتشف رشفة قصيرة، ثم ألقى نظرة إلى هاتفه الموضوع أمامه. ظهر إشعار على الشاشة:

"تمَّت مشاهدة المقطع: 3 مليون مشاهدة".

ابتسم فارس ابتسامة واهنة، أقرب إلى السخرية منها إلى الفرح. تمتم وهو يضع الكوب جانبًا:

- هذا هو العالم، كلمات عابرة ترفعك، وكلمات أخرى قد تُسقطك.

نهض عن كرسيه، اتجه نحو الرف، التقط ساعة قديمة، كان يعبث بها كلما ضاق صدره.

ثم جلس مجددًا، مدَّ يده إلى درج صغير في المكتب، فأخرج مفتاحًا معلقًا به شريطٌ قماشيٌّ أسود. تأمل المفتاح طويلًا، كأنه لا يفتح بابًا بل سرًّا.

رنَّ هاتفه، فنظر إلى الاسم، ولم يتردَّد أن يردَّ. جاءه الصوت من الطرف الآخر:

- لقد خَرَجَتْ.

أغمض عينيه لحظةً، وقد كان واضحًا أن الخبر لم يفاجئه، بل أكَّد له ما كان يتوقع.

قال بهدوءٍ مُتماسك:

- دعها تخرج... فالطريدة لا تشتدُّ قيمتها إلا بعد أن تهرب.

ضغط على زرّ الإنهاء، ووضع الهاتف على الطاولة، ثم رفع رأسه نحو الجدار الزجاجي حيث تلمع الأضواء، وقال لنفسه:

- الليل لم يبدأ بعد.

كان فارس يتأمل في صمتٍ بارد، بينما عقله يكتب مشهدًا لم يحن عرضه بعد، وعيناه لا تعكسان فرحًا ولا حزنًا. بل برودًا أشبه ببرود مسلسل مملٍ طويل..

رنَّ الهاتف مرة أخرى، وظهر على الشاشة اسم محفوظ بلقبٍ غامض: "المهندس".

رفع السماعة، فجاءه الصوت: "هل تسير الخطة كما أردت؟".

أجاب فارس وهو يمزّق ورقةً تحمل اسم مشاري:

- بل كما أردنا.

ثم أغلق الخطَّ، وأعاد الهاتف إلى مكانه، وحدَّق في الأفق الملبَّد بكلْ الأضواء الخفيفة، وقال في نفسه:

- اللعبة بدأت.. ولن يخرج منها أحد كما دخل.

***

وفي الجانب الآخر، وبعد ثلاثة أيام، كان الصبح يتسلل بخطاه الوادعة إلى بيت الجد، حيث جلس مشاري أمام إسبيرانزا، لكنَّ هذه المرة أصبح جلوسهما خطرًا، بعد أن تصدَّر مواقع التواصل الاجتماعي خبرًا بات الأكثر تداولًا: #اختفاء_إسبيرانزا

قال مشاري، وهو يقرأ:

- ماذا سنفعل؟ لا بدَّ أن فارس بدأ يلعب لعبته القذرة!

فقالت إسبيرانزا، وهي خائفة على نفسها من المجهول:

- أمي.. هل أخبرها؟ أخاف أن يحدث لها مكروه بسبب اختفائي!

- هل تثقين بأنها لن تقول لفارس؟

- أمي تحبه، لا أعتقد بأنها ستصدقني وتكذبه.

- إذًا لا تخبريها، حتى نجد حلًا!

فلم يلبث في قراءة التغريدات حتى اتصل عليه أحمد، فنهض من مكانه، وخرج خارج المنزل، ثم ردَّ...

- أهلًا أحمد.

- هل رأيت الخبر... إسبيرانزا!

فقال مشاري وهو يمتصُّ قلق صديقه:

- أين أنت؟

- في غرفتي.

- سأرسل إليك موقعًا، تعالَ مباشرةً.

وما إن بعث له موقعه حتى وصلت إليه رسالة من رقم مجهول:

"أستاذ مشاري، هل يمكنني أن ألتقي بك؟".

فاستغرب لذلك استغراب المستفهم، لكنه رفع هاتفه واتصل...

- من معي؟

- أنا متأسفة جدًّا لتطفلي بإخراج رقم هاتفك، لكنَّ الموضوع ظلَّ معلقًا في صدري أكثر من ثلاث سنوات..

سكت قليلًا وهو يرمق للمارَّة من أمامه في الشارع، ثم قال:

- لم أفهم؟

- أنا... سارة.

- من سارة؟ لا أعرف أحدًا بهذا الاسم.

- سارة، ذات وشم الطائر..

شهق وهو يستعيد ذاكرته بعد رغبته في أن يتجاوز كلَّ الألم الذي حدث له في الماضي، فقال وصوته يتزعزع من فمه:

- سارة، مهما كان، فلا أريد العودة للماضي!

- أرجوك.. أريد أن أراك عشر دقائق فقط.

***

بعد نصف ساعة

وقف أحمد عند باب بيت الجد، يتلفَّت حوله كمن يبحث عن تفسير لدعوته المفاجئة، فلم يلبث يُبصر المكان حتى فتح له مشاري الباب، شدَّ على يده بحرارة، ثم وضع كفَّه على كتفه وقال بصوتٍ يقطر جدِّية:

- عندي ما سيُدهشك يا أحمد.

دخل أحمد بخطاه المترددة، عيناه تجولان في المكان: جدران متشققة، غبار يعلو الزوايا، ولوحة حصانٍ قديم تتدلَّى من مسمار واحد بعدما خانها الآخر، فقال بدهشة:

- ما هذا المكان؟

أجابه مشاري وهو يتقدَّمه بخطوتين:

- بيت جدي، هجَرناه منذ سنين، لم يُبع، لأنه ظلَّ عالقًا بين خلافات الورثة.

ثم توقف مشاري أمام باب خشبي متآكل عند الأطراف، وضع يده على مقبضه، ثم التفت إلى أحمد قائلًا:

- أحمد، هل تثق بأخيك؟

ابتسم أحمد ابتسامة تحمل كل الطمأنينة، وضرب على صدر مشاري ضربة أخٍ:

- أثق بك أكثر مما أثق بنفسي.

فتح مشاري الباب ببطء، وانفرجت دهشة أحمد حين رأى داخل الغرفة إسبيرانزا، جالسةً بوجه شاحب وابتسامة خائفة، وهي تنظر إليه بأعين لا تودُّ.

شهق أحمد وهو يخطو خطوةً إلى الداخل:

- إسبيرانزا... أنتِ هنا؟

ثم استدار نحو مشاري، وكان صوته ممزوجًا بالذهول:

- إذًا ما يُقال في الأخبار لم يكن وهمًا!

ابتلع مشاري ريقه، ثم قال بجدية:

- المهمة التي على عاتقي.. أن أخرج إسبيرانزا من المأزق.

رمق أحمد بنظرة حائرة نحوها وقال:

- مأزق؟

تشابكت أصابعها بتوتر، وردَّت بصوت خافت:

- مشاري، لا تقحمه...

تدخل أحمد، وقد ازداد فضوله:

- يقحمني بماذا؟

أخذ مشاري يتمشى بالغرفة، كأنه يبحث في المستقبل عن حلٍّ. قال:

- إسبيرانزا لم تختفي عبثًا، كانت مسجونة، ليس عند السلطات، بل عند زوجها.

ارتفع حاجبا أحمد بدهشة:

- لحظة، لا تحدثني كأنني أعرف كل شيء، أبدأ من البداية.

جلس مشاري، وبدأ يروي القصة كاملة، حدثًا بعد حدث، حتى بدا صوته يفتح جروحًا قديمة. كانت إسبيرانزا تستمع، ودموعها تتساقط بصمت، لأن كل كلمة كانت تعيدها إلى زنزانة تلك السنوات الثلاث.

وحين انتهى، صمت الجميع لحظة، ثم قال أحمد بحزم:

- شئتما أم أبيتما، أنا معكما.. والله لا أترككما وحدكما.

قالت إسبيرانزا وهي تمسح دموعها:

- لا أعتقد بأن هناك مخرجًا.

وقف مشاري أمامها وقفة شموخ، مستقيمًا في مشاعره وثقته، فقال والرجولة تُقطّر من لسانه:

- والله.. لن أتركك تضيعين من يدي مرة أخرى.

أنت لا تعرف كم انكسر هذا القلب، دون أن يشعر أحد!

في اليوم التالي
الساعة العاشرة صباحًا
10:00

ترك مشاري عند باب غرفة إسبيرانزا ورقة صغيرة كتب فيها:

"إن صحوتِ وبحثتِ عني، فأنا قريب".

لم يكن معها هاتفًا منذ أن فرَّت من فارس، فاختار الحبر بدلًا من الشاشة.

ثم خرج مسرعًا، بخطوات مشحونة، وهو يسير إلى مواجهة قديمة بأقدام جديدة، أحس أن اليوم لن يكون عاديًا، فكل خطوة نحو المتهى كانت أثقل من سابقتها.

وصل إلى مقهى EMLS وجلس يفتِّش الوجوه بعينيه، يبحث عن أثرٍ يرشده إلى سارة، ذات وشم الطائر. لكنه لم يطل بحثه حين تقدمت نحوه فتاة بعينين دامعتين، وضعت يدها على فمها كأنها تمنع نفسها من الصراخ:

- أأنت مشاري؟ أنت حقيقي!

أطرق برأسه تواضعًا، وقال بهدوء:

- نعم يا أختي، أنا مشاري.

اقتربت منه أكثر، بصوتها الذي أخذ يتهدج:

- لماذا يقولون في الأخبار أنك خطفت امرأة تدعى إسبيرانزا؟ وأنت وحدك الآن! لا بدَّ أنهم يكذبون ليسقطوك...

شهق شهقةً لفتت انتباه الجالسين، بل الهواء ضاق في صدره فجأة. فارتبكت عيناه، وأخذت تفرُّ بين الوجوه، حتى وقعت على زاوية بعيدة ورأى يدًا تلوِّح له..

اقترب أكثر، غبان الوشم على معصميها، طائر صغير يمد جناحيه، فكانت هي، سارة.

مشى مشاري بخطواتٍ مضطربة بعد أن باغتته الفتاة العابرة بخبرٍ أربك توازنه، حتى بلغ طاولة سارة. جلس قبالتها، بعد أن وضع هاتفه في جيبه، وأطرق لحظةً قبل أن يقول بصوتٍ خافت:

- مرَّت سنين..

كانت تحدِّق فيه وهي تفتِّش عن ملامح الحقيقة بين قسماته. فقالت، وكلماتها تتساقط مترادفة:

- آسفة.. آسفة ثم آسفة. كنتُ سببًا في توريطك بما لم تصنع، لأنني يومها صدَّقتُ الناس ولم أصدق عقلي، وهذا ذنب قلبي، فجئتُ اليوم لأعتذر.

انعقد حاجباه، وهو يبحث في ذاكرته عن معنى لكلامها، فلم يجد، فقال ببرودٍ مشوبٍ بالدهشة:

- توريطي؟ بأي شيء؟

وضعت كوب قهوتها على الطاولة، تنفست بعمق وقالت:

- يوم قلتُ إنك قتلتَ جَنى.

أغمض عينيه، وأخذ يستحضر سواد تلك المرحلة. ثم تنفّس ببطء وقال:

- تلك صفحة طويت، فما الفائدة من نبشها الآن؟

أجابته بسرعة، وفي صوتها إصرار:

- لأن عندي ما يستحق أن يُسمع.

ظلَّ صامتًا لحظة، ثم قال وهو يضغط على شفتيه:

- قولي إذًا.

فانحنت نحوه قليلًا، وهمست:

- بعد خبر اختفاء إسبيرانزا...

قاطَعها بارتباك:

- أنتِ أيضًا تعلمين؟

ابتسمت بسخرية يائسة وقالت:

- ومن لا يعلم؟ الخبر ملأ الأرض. لكنني بحثت، فتتبّعت سيرتها، ووجدت شيئًا أغرب... قبل ثلاث سنوات تقريبًا، أعلنت شقيقتها مريم زواجها من رجل يدعى فارس سلطان.

اعتدل مشاري، ووضع كفيه على الطاولة، ثم قال بحدة:

- وما شأن ذلك؟

اقتربت أكثر، وانخفض صوتها حتى صار كالهمس:

- فارس سلطان لم يكن مجرد زوج، بل كان حاضرًا ليلة مقتل جَنى.

ربط مشاري ما تقوله سارة بما قالته له إسبيرانزا، فتصنَّع الدهشة ليعرف الحقيقة حين قال:

- أهذا افتراء جديد؟!

رفعت يدها وهي تحلف:

- أقسم لك، رأيته بعيني، كنتُ أهرب في الظلام، فإذا به يوقفني. أعرفه جيدًا من الإعلام. وسألني: "هل رأيتِ من المتسبب؟" أجبته: "لا، هل ماتت؟" فلم يرد، بل قال قبل أن ينصرف: "ما جرى لم يكن بقصد.. وأول اسم تسمعينه، فصدقِّي أنه الجاني".

ظلَّ مشاري يحدِّق فيها مذهولًا، وما لبث في ذلك حتى أضافت سارة بصوتٍ يرتجف:

- وللأسف.. أول اسمٍ تناقلوه كان اسمك. صدَّقت وقتها، لكن حين سمعتك في النيابة، علمت أني أخطأت. فالصوت الذي سمعته تلك الليلة لم يكن صوتك، كان أخشن، أعمق، ومعه صرخة أنثى مزَّقت السكون.

انكمش صدر مشاري، وأحس أن كل ما يعرفه يتداعى أمامه. ثم تمتم وهو يحاول لملمة أنفاسه:

- إذًا.. فارس.. هو من قتلها؟

هزّت رأسها ببطء:

- لا أجزم، لم أره يفعل، لكني سمعت ما يكفي لأقول: الحقيقة لم تُروَ بعد.

ثم أخرجت من حقيبتها هاتفًا، ووضعته على الطاولة، فكان أقرب لمشاري منها، وقالت:

- هذا كل ما أملك، مقطع صوّرته تلك الليلة. لم أجرؤ على نشره، لكنه الآن أمانة عندك، أسعى لتعرف من كان، وستتضح لك الصورة لكل أحداث اليوم.

خرج مشاري من المقهى وهو يحمل سرًّا أعمق من أن يعرفه كلُّ من تداعى له الفضول، لكنه بمجرد أن رأى الفيديو، اتصل على أحمد، وقال:

- أتذكُر أن لأبيك صديقًا اسمه نادر...

قال أحمد مؤكدًا، لكنه مستغربًا:

- أجل، الطبيب الشرعي المُتقاعد، كيف تذكرته ولماذا؟

- غدًا صباحًا، أريد أن أراه في بيت جدي، أخبره بأن الأمر بالغ الأهمية!

***

في اليوم التالي
الساعة التاسعة صباحًا
9:09

جلس الثلاثة مشاري وأحمد وإسبيرانزا في إحدى غرف بيت الجد، ولم يلبث جلوسهم وتبادلهم الأحاديث العامة ساعةً حتى دخل عليهم شيخ وقور، أصلع الرأس، يضع نظارة سميكة، وبياض جلده كبياض شعره، كان الدكتور "نادر" ذلك الطبيب الشرعي المتقاعد، الذي يعرفه والد أحمد خير المعرفة.

فسلَّم بهدوء، بعد أن نهض الجميع يسلِّم عليه، باستثناء إسبيرانزا، التي سلَّمت عليه من بعيد، ثم جلس أمامهم، وفتح ملف رتَّبه أحمد له، ولم ينهمر في قراءته حتى رفع نظره إلى مشاري وقال:

- قلتَ إن عندك شيئًا تريد أن أعرضه على خبرتي.

أشار مشاري إلى الهاتف، ثم أعطاه وعرض الفيديو المهزوز الذي سلَّمته له سارة، ظلَّ الدكتور نادر يعيد المشهد، ويوقفه مرارًا عند لحظة اليد التي دفعت، ثم يعيد تشغيله، إلى أن قال بلهجة ثابتة، لا يزينها ولا يخففها:

- هذه ليست جريمة خنق، ولا طعن، هذا سقوط. زاوية الجسد والارتطام تدل على دفعة مفاجئة.

شهقت إسبيرانزا، وضمت يديها إلى صدرها كمن يحتمي من كلمة، أو كمن عاش ليلة تمنى أن تُدفن في سحابة النسيان.

لكنَّ الطبيب نادر واصل دون أن يهتمَّ لردة الأفعال عنهم:

- حتى موضع الكدمة في الرأس، كان أعلى الجانب الأيسر. هذا لا يحدث إلا إن ارتطم المرء بحافة صلبة من ارتفاع متوسط.

ثم أغلق الملف، ووضع نظارته على الطاولة، رفع رأسه نحوهم وقال بصرامة:

- باختصار، من مات؟ مات بدفعة. ليست سكيناً ولا رصاصة. دفعة واحدة كانت كافية لتُسقطه إلى موته.

ساد الصمت، حتى قال أحمد:

- هل القاتل لم يكن يقصد؟

- لا شأن لي بالنوايا، شأني بالنتيجة، والنتيجة أمامي هي القتل.

ثم التزم اتزان خبرة السنين، وأكمل:

- الدفعة قد تكون خطأً، لكنها تبقى الحقيقة.

أنت الحياة المنشودة في الدنيا، فالحمد لله
الذي أراني حياتي.

لم يذق مشاري في يومه طعم السكينة، كان يتقلب على جمر ثم يُجرِّحهُ من كل صوب، حتى غدا اسمه على الألسنة كما يُتلى الذكر في المجالس. فقد انبعث من إحدى منصات التواصل الاجتماعي صوتٌ مجهول، يكتب بمداد الخبث:

"لا تبحثوا عن إسبيرانزا في الشوارع، بل ابحثوا عنها عند الكاتب مشاري".

فزلزلت العبارة قلبه، وأيقن أن الشبكة التي تطارده إنما أُحيكت لتسحقه!

فمضى إلى إسبيرانزا، مثقلًا بحملٍ لو وُضع على الجبال لتصدَّعت، وأخبرها بما يُدار في الخفاء. فما كان منها إلا أن انفجرت باكية، شهقت حتى كادت روحها تخرج مع دموعها، وغرقت في بحرٍ من الحزن لم يترك لها شاطئًا.

هنالك لم يصبر، ولا وجد في نفسه صبرًا ليصبِّرها، بل بكى معها بكاءً مريرًا، بكاء الطفل إذا انفجر أمام وداع أمه، كان يتلوّى أمامها كما يتلوّى الغصن في مهبِّ الريح، وهو الذي طالما جاهد أن يكون صامدًا.

لم يتحدثا إلى بعضهما قط، فقد تكفَّلت لغة الدموع أن تنطق عنهما، وتحدَّثت العبرات بما أعجز اللسان، عندها شعرا ألا ملاذ، وأنهما بلغا قاع الضياع، والطرق من أمامهما مجهولة، لا يعرفان أهي تؤدي إلى حياة أم إلى هاوية، فأين المفرُّ؟

❁❁❁

لم يذق مشاري من النوم إلا غفوة لا تزيد على ساعتين، وما كان نومًا بل كان صراعًا بين عينٍ تريد أن تستسلم، وقلبٍ يأبى أن يهدأ.

كان الهاتف في يده كالقيد، يعيد به ذلك المقطع الذي ألقته إليه سارة، فإذا فتح عينيه من سباته القصير وجد عقله معلّقًا في دائرة المجهول.

نهض من على الأريكة المتشققة، يجرُّ خطاه كما يجرُّ الأسير قيوده، وفتح الباب ليبتغي جرعة ماءٍ يبلل بها ريقه اليابس، فإذا بورقةٍ مبعثرة عند عتبة الغرفة، كأنها سقطت من يد قدرٍ لا يرحم. التقطها بسرعة، وما إن فتحها حتى خرَّ على الأرض، لأن الحروف أثقل من أن يحتملها صدره.

كانت الكلمات تئن على السطور:

"كُن على يقين أنني أحببتك حبًّا لم أشك فيه يومًا، ولكنني اليوم فكرت طويلًا، وقررت ألا أزيدك همًّا على همّك، ولا أجرُّك إلى مأزقٍ لم يكن لك فيه يد، أنا ذاهبة يا مشاري.. ولا أعلم أي طريقٍ سيأخذني. إعلم أنَّ زواجي من فارس لم يكن حلمًا من أحلامي، فقد كنتُ أريدك أنت، أريدك منذ سنين لا تنقضي. لكنني جُبرت كما يُجبر الضعيف على ما لا يطيق.

ولعل بعض الأحلام تُحبس في صدورنا عقابًا على خطيئةٍ اقترفناها. أرجوك، لا تبحث عني، دعني هذه المرة أكون من ينقذك من المصائب، كما أنقذتني من اليأس. لا تلحقني، بل دعني أواجه قدري الذي صنعته بيدي. ما قصدت أن أجرحك مرة أخرى، ولكنني أريد أن أراك بخير، وإن انتهت هذه القصة؟ فاكتبها كما هي، اجعلها رواية، وقل للناس كم كنتُ أحبك وأنا بعيدة، وكم كنتُ أعشقك وأنت لا تعلم".

تريد أن أكتب لها روايةً، ولا تعلم أنها روايتي.

بعد أن هوى مشاري بجسده إلى الأرض، وضاقت عليه الأرض بكلّ جوانبها، كأن الرسالة سهمٌ اخترق قلبه وألقاه صريعًا. نهض مذعورًا، لا يعلم بأدنى معاني المعرفة أهو يفرُّ من نفسه أم يطارد طيفها الهارب، فاندفع خارج المنزل يركض في الطرقات ركضَ الملهوف الذي أضاع أعزَّ ما يملك.

وظلَّ يسأل كل من صادفه عن أثرٍ لها، فإذا كلٌّ منهم ينظر إليه بعين الريبة، كأنما رأوا أمامهم رجلًا أصابه مسُّ الجنون. تركوه ومضوا، لأنهم يجهلون عمَّا يبحث، وهو لم يزل يجوب الأزقة بلا هدى، لا يقوده عقلٌ ولا يردعه يأس.

ركب سيارته، وانطلق في الطريق السريع يبحث عنها بين الظلال، بين المصابيح، بين الريح... يبحث عن أنفاسها بين صمت المدينة، فلا يجد إلا صدى قلبه يتردّد عليه!

لم يطاوعه فكرُهُ أن يخسرها ثانية، ولم يقبل أن تسرقها الأيام كما سرقتها أول مرة، فآثر أن يركب أعنف الأخطار، وأن يستنجد بالجنون إذ أعياه الصواب. مدَّ يده إلى هاتفه، أخرج الرقم الذي طالما تردّد في طلبه، وضغط زر الاتصال.. فارس.

ولم يكن فارس يومها غافلًا عنه، بل كان يترقبه، فحين رنَّ الخط لم يبدُ على صوته دهشة، بل جاءه راسخًا، ثابت النبرة، كأنما كان يعلم أن هذا النداء سيأتيه لا محالة:

- تأخرت كثيرًا يا مشاري.

تجاهل مشاري كل شيء، وقال غاضبًا:

- أريد أن أراك، الآن!

قال فارس وهو يتسلح بالهدوء:

- فات الأوان، لماذا تريد أن تراني؟

- كلانا رجال يا فارس، لا تتَّخذ مسلك الجبناء وأقبل برؤيتي.

قال فارس، بعد أن كان يسعل من سيجارته:

- حسنًا، سأرسل إليك موقعًا، تعالَ إليه، بانتظارك.

أغلق مشاري الخط وهو يحوم بين الشوارع، ينتظر رسالةً تنجيه، لعله يلتقيها من جديد، فتصبح له من جديد، وينسى العالم بأسره، فالذي يعيش على إنسان، لا يريد من الدنيا إلا من عاش لأجله.

❊❊❊

بعد نصف ساعة

الساعة الثانية بعد الفجر

2:11

لم تكن الرحلة قصيرة في عدَّتها، لكن وقعها أشدُّ ألـمًا بعد أن تمر كل دقيقة منها حين تنتزع من عمره عمرًا بأكمله، فما وصل إلى المكان إلا وقد أرهقه الانتظار قبل أن يرهقه الطريق!

رأى ارتفاع الأنوار وهي تعانق أبراج الممر، تتلألأ كأنها زينة لموكب لا يعنيه من جمالها شيء، فقد صار كل ما في الدنيا عنده لا يعدل ذكرى إسبيرانزا ولا يوازي حضورها، فهي أغلى من العمر وأعزُّ من الوجود.

لمح من بعيد فارس، وقد كان مستندًا إلى الحائط كأن الجدران خلقت لتحمله، يتفيَّأ بظلال كبريائه، تعلو رأسه قبَّعةٌ أخفى بها ملامحه، ولم يُخفِ بها غطرسته. كان يشعل سيجارته ويجرُّ أنفاسها ببطءٍ متلذِّذًا، ثم ينفث دخانها في الفضاء كمن يتعمَّد أن يملأ الأفق بغيومه، ليحجب عن خصمه نور الرجاء، فرفع رأسه لمَّا اقترب مشاري، وفي عينيه سخرية باردة، لا يقطعها إلا دخان يلتف حول وجهه كستارٍ من الغموض.

وقف مشاري قبالته، وقال بصوته الذي خرج من غضب رجلٍ ضاقت حيلته:

- لا يهمني إن كنت صالحًا أم فاسدًا يا فارس، ما يهمني أن تنعم إسبيرانزا بعيشة كريمة.

كان فارس باردًا في فعله وتصرفه، ينظر إلى مشاري بابتسامة مستفزَّة، لكنه لم يمنع مشاري من أن يقول:

- وجهك يخبرني الكثير، أنت تعلم أنها استنجدت بي من طغيانك وسجنك لها...

رفع فارس كفَّ يده وهو يمنع مشاري من إكمال ما يريد أن يقول، ثم قال:

- أتعلم يا مشاري بأن فعلك هذا ما عقوبته؟

- إن كانت عقوبتي حماية إسبيرانزا، فضع عليَّ عقوبات الدنيا واتركها حرّة بحياتها.

رمى فارس سيجارته أرضًا وداس عليها بحذائه، ثم قال:

- لم يعد بيدي حيلة، أخبرتك أن الأوان قد فات.

لم يملك مشاري زمام نفسه، فانقضَّ على فارس كالسيل، ولطمه طلمًا شقَّ جفنه فسالت الدماء على وجهه، غير أنَّ ما أذهله أنَّ فارس لم يصرخ ألمًا، بل انطلق ضاحكًا ضحكًا صارخًا في المكان كأنَّه يستهزئ بالجرح الذي نزف منه. رفع عينيه الملطَّختين بالدم، وقال بصوتٍ يجمع بين السخرية والمرارة:

- آه يا مشاري، أتُصدِّق؟ سعيتُ أن أحميها من نفسها، من قدرها، ولكنها أبت إلا أن تفرَّ من يدي إلى يديك، فخسرتني وخسرتك.. هي الآن في السجن، فابحث عنها هناك.

تراجع مشاري خطوةً وهو يهتزُّ مما سمع، فقال خائفًا:

- السجن؟ ولماذا السجن؟

مسح فارس الدماء عن وجهه بيده الملطَّخة، ثم قال ببرودٍ قاتل:

- لأنها أرادت أن تعبث مع "المهندس"، حذَّرتها أن اللعب معه نار، ولكنها لم تُطعني.

التفت مشاري حوله كالمذهول، حين ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وصاح بصوتٍ مخنوق:

- أيُّ مهندسٍ هذا؟

مضى فارس نحو طريق الخروج، خطواته واثقة، كأنَّ الدم الذي يقطر من جرحه وسام شرفٍ لا عار، ثم وقف عند العتبة، وألقى نظرة أخيرة إلى مشاري، وقال في لهجةٍ يعتليها الغموض والكبرياء:

- ليس كل ما في الدنيا ينبغي أن تعرفه، لقد جئتني من أجلها. فاذهب إليها، ودَع عنك ما لا يعنيك.

ثم غاب في الظلام، وبقي مشاري واقفًا على صخر الحيرة يتآكل قلبه من نارٍ لا يطفئها ماء، فركض نحو سيارته، مثل المرء حين يصيبه داءٌ خطير، يبحث عن أيِّ منجاة.

أنت أملي الأخير.

t.me/books210

ضاع مشاري في متاهات اليأس، يفتش في طرقات المدينة عن أنثاه، تلك التي عاش عمره يتمنى أن تكون قسمته من الحياة. ولكن النصيب لم يكتب كما أراد، بل ساقه إلى دربٍ أشد إيلامًا مما تطيق القلوب، ولمّا تردّد اسمها على لسان فارس، هرع يسأل مراكز الشرطة ويطرق أبواب الهواتف، فلم يجده جواب، حتى ساق قدميه بنفسه إلى السجن الكبير.

وقف أمام الضابط مضطرب النفس، مرتجف الصوت، لا تكاد الكلمات تخرج من بين شفتيه، حتى جاءه الجواب الذي خرَّ قلبه:

- نعم، هي هنا، بين الزنازين.

طلب لقاءها كالغريق حين عَلِمَ أن الأجل قد حان، وانتظر دقائق أحسَّها دهورًا، ثم رأى إسبيرانزا تدخل مكبَّلة اليدين، مثقلة الخطى، يجرُّها الحديد الذي يجرُّ قلبه معها.

هوى مشاري على ركبتيه من هول المنظر، فأحسَّ أن الأرض خذلته، فلم تستطع أن تحمله، فأقبل عليه شرطي من جانبه، ورفعه برفق وهو يقول كلمةً حفرت في صدره معنى العزاء:

- نعرفك يا مشاري من صوتك الذي يسندنا، لا تنهزم اليوم، فإنك دواءٌ لأرواحنا.

مشى مشاري إلى الكرسي كالمسحوب على أشواك، فجلس، وجلسَت أمامه إسبيرانزا، وحين أراد أن يقول كلمة، لم يستطع بعد أن أفشى عمَّا بداخله ببكاء الذي لا حول له ولا قوة، بكاء مبحوح، بكاء رجلٍ انهزم

أمام قدره. فأشاحت بوجهها عنه لحظة، ثم عادت تنظر إليه، وعلى يديها قيود الحديد، فقالت بصوتٍ خفيض فيه رحمة وحسرة:

- والله لم أشأ أن يكون جلوسنا هنا، كنت أحلم بأن يكون مكاننا في مقهى LMLS بعد الزواج، لكنَّ مشيئة الله أقوى، وأقداره أحنُّ علينا مما نريد.

كانت عيناه محمَّلتان بالانكسار، وصوته يختنق بين ضلوعه حين قال:

- حبيبتي، لماذا أنتِ هنا؟ أريد أن أكون مكانكِ في هذا المكان.

قالت وهي تعضُّ شفتيها حسرةً على سقوط مشاري أمامها مكسورًا:

- هنا ليس مكانًا مناسبًا لك، فأنت لم تقتل جنى، هنا مكاني أنا، الذي أستحقُّ، لأنني أنا من قتلتها.

رآها بعينين مرعوبتين وانفجر صوته مذعورًا:

- أنتِ التي قتلت جنى؟ كيف؟ لا يمكن!

- بلى يمكن!

- لا يمكن... أنا متأكد من أن المهندس له يدٌ في الأمر!

أخذت تحرّك رأسها يُمنةً ويسرة بعد أن غلبتها الدموع وهي تقول:

- لا تبحث عن شمّاعة، أنا الفاعلة، هل تريد أن تسمع الحقيقة أم تبرّئني من تهمة أنا أقرُّ فيها؟

جلس منهارًا وهو لا يقوى على تركيب الأحداث في عقله. فكلُّ ما تقوله لا يمكن أن يحدث في نطاق المنطق!

رفع بصره إليها وهو يستغيث بأيِّ سؤال:

- كيف عرفتِ جنى أصلًا؟ وما الذي قادكِ إليها تلك الليلة؟

أخذت نفسًا عميقًا، وقالت بارتعاش:

- عرفتُها من خطِّ استشاراتٍ تطوُّعي بعد ورشة ألقيتُها عن حقوق المُبلِّغين والأدلَّة الرقمية. كتبتْ لي سرًّا أنها تملك تسجيلات تُدين من يُسمَّى بالمهندس، وأنها تخاف الذهاب وحدها. طلبتُ لقاءً سريعًا لتُسلِّمني الهاتف والأوراق ونرتِّب البلاغ صباحًا. جئتُ، وجاءت سارة معها لتُؤمِّنها. ثم اشتعلت اللحظة: شدَّتْ يدي وشدَدتُ يدها على الهاتف، تمسَّكت بالأوراق وأنا أريد أن أسكنها، فزلَّت قدَمها! وكانت هي الدفعة التي قتلت كل شيء بلا قصد، ثم جاء فارس بعدها بأقلَّ من ثلاث دقائق، رآني مُحطَّمة، فمدَّ عليَّ قيدًا سمَّاه الحماية، وكان سجني.

سارة ذات الوشم لم ترَ أنني الفاعلة، ولم أعرفها أصلًا قبل ذلك اليوم، لأنها ذهبت إلى الوراء قليلًا دون أن أعرف السبب، وعندما وجدتها في ملف قضيتك، علمت أنها لا تعلم أنني الفاعلة، فبتُّ قويةً تجاهها حتى أبرئك من التهمة، لأنني أعلم أنك بريء، فأنا الفاعلة من دون قصد يا مشاري.

توقّف عقله عن التفكير، وأحسّ أنه وقع في مكان أكبر من مقدرة المرء الطبيعي أن يفكر فيه، فقال:

- من المهندس؟

نظرت إليه إسبيرانزا طويلاً، وهي ترى في ملامحه الانتقام، لكنها وهي في هذا المكان، لم يكن عليها سوى أن تقول:

- رجلٌ لا يظهر باسمه، يدير الأزمات خلف الشاشات. في الشبكة يسمّونه هكذا لأنه يرفع الناس ويهدمهم بسحرين، ويبتزّ الفتيات بما لا يرضى فيه الدين ولا المروءة ولا الشرف، يبتزهن ليأخذ ما يريد، وهو الذي حرّك الهاشتاق، رأيتُه مرّتين، قبل أن أعرف أنه هو المهندس، مرةً في مقهى EMIR وكان يحمل ندبةً واضحةً على معصمه، وأخرى صغيرة في عنقه، أما المرة الثانية فرأيته عندما خرجنا من النيابة يوم برّأوك، كان يراقبني من بعيد، ويختفي كالشبح.

كان مشاري ينظر إلى أعينها وهي تتحدّث، فيسهو لحظة ويعود لحظه، قال بعد أتمّت قولها:

- ما الأوراق التي عند جنى ولا يريد المهندس أن يكون عندها؟

قال الضابط وهو يعيد ترتيب بدلته:

- لديكما دقيقتان فقط.

فقالت إسبيرانزا بسرعة:

- جَنى؟ لم تكن عدوَّة ولا غريبة. كانت مجرَّد فتاة وقعت في يد المهندس، مثل كثيرات. ابتزَّها، وهدَّدها بفضيحة، ودفعها لأن تعطيه ما يريد، جسدًا أو سرًّا أو مالًا، لكنها لم تخضع.
كانت تحتفظ بأوراق... عقود مزيَّفة، وتحويلات بنكية، وأسماء رجال كبار يبيعون شرفهم للمهندس، فلو خرجت تلك الأوراق للنور، لسقطت رؤوس كبيرة.
جَنى خافت. وجاءتني، فلم أكن سوى مرآة حائرة عند خوفها. حاولت أن أُسكنها، لكنها تمسكت بالفضح، وتحديدًا بالعدالة.
تلك الليلة، وفي لحظة جنون، أمسكت بيدها حين دفعتني عن الورق، فدفعتُها أنا دفعةً لم أقصد بها موتًا. لكنها سقطت، ومعها سقط قلبي وروحي، وأنت.

فهامت تغطي وجهها بكفيها، وصوتها يتقطع:

- أردتُ أن أصدَّ عنها الأذى، فإذا بي أكون الأذى بأكمله، وفارس رأى كل شيء، لم يكن قاتلًا، كان ستارًا. سجنني لا ليعذبني، بل ليُغلق فمي عن الأوراق. مشاري، جَنى ماتت بالفضيحة قبل أن تموت بالسقوط. وأنا؟ متُّ معها منذ تلك الليلة.

قال مشاري وهو يشعر أن الدنيا من حوله تدور:

- هل حماية فارس أجمل من حمايتي؟ لماذا تركتِ قلبي لتذهبي إلى قفصه؟!

نظرت إليه نظرة كسيرة تنضح حبًا ودمعًا مما ظنّ، وقالت:

- لا يا مشاري، لم يكن حبه أجمل، ولا سجنه أهون، لكنك كنت روحي، وخفتُ أن أراك تُحاكم بجرمي. لم أتركك لأن حبك ضعيف، بل تركتك لأن حبك عظيم، عظيمٌ إلى حدٍّ أخاف أن ينكسر في يدي، فاخترت أن أنكسر وحدي، بعد أن قدّم فارس نفسه زوجًا ليحميني ويستر على نفسه والمهندس، فقبلت بزواجٍ لم أرده، فقط لأحميك.

سمعا صوت الشرطي يعتلي: انتهى وقت الزيارة.

فقامت إسبيرانزا وهي تبكي، وجرّتها شرطية بيدها المقيدة، وكان مشاري ينحب في مأساته التي لم يعش أقسى منها، سمعها تقول قبل أن تغيب عنه:

- مشاري، اكتب قصتي رواية، أبدع بها، وأخبر الناس الحقيقة، فالنهاية لا تزال معلقة، لكنني أخشى على الفتيات من الضياع أمام المهندس، أرجوك اكتبها رواية وانشرها!

فقال صارخًا:

- أعدكِ بأنني سأعيد دراستي وأدرس المحاماة كي أنقذكِ، أنتِ الأمل الذي أعيش عليه يا إسبيرانزتي، لن أمضي في الحياة إلا معكِ، أعدكِ بأن أكتب قصتكِ حتى يعرف الناس أن للحب شهداء كما للحرب.

حتى لو لم تكن من نصيبي، كنت لي أجمل قدر.

تم تجهيزها بواسطة ♡

t.me/books210

لم يزل الناس يتعلَّقون بأحلامٍ يعلمون في أعماقهم أنَّها أوهام، ولكن ما أقسى الحياة إذا نُزعت منها الأوهام! فمن عاش بغير رجاء، فليس له من السعادة نصيب.

غاب مشاري عن دنيا الناس كما يغيب القمر خلف سحابٍ كثيف، لا يُرى له أثر، ولا يُسمع له صوت، واعتزل منابر القول التي كانت تملأ الأعين والقلوب، فانصرف إلى قلمه يستودعه لواعج نفسه، ليروي به حكاية تؤنس القُرّاء وتُعذِّب روح الكاتب بداخله.

ستة أشهرٍ مرَّت وهو بين دفَّتي الورق، كلَّ يومٍ يمحو ما كتب بالأمس، حتى صدر الحكم الذي خفَّف عن إسبيرانزا ما كُتب عليها من السجن المؤبَّد إلى ثمانية أعوام، إذ ثبت أن ما وقع لم يكن عمدًا، بل كان زلَّةً أورثت مصابًا لا يُجبر.

وما أفشت إسبيرانزا سرًّا بعد ذلك، لا عن فارس ولا عن المهندس، صونًا لمشاري من بطشهما، وحذرًا أن يُلقى به حيث أُلقيت هي. أما فارس، فآثر الصمت بعد آخر لقاء، فلم يعد يُرى في الإعلام الذي كان مأواه، ولا في الناس الذين كانوا يهتفون باسمه.

وأمَّا مشاري، فقد أضنى نفسه صبرًا، واحتمى بحروفه من العاصفة، حتى فرغ إلى خاتمة روايته التي ستحدث زلزالًا جدليًّا فكتب فيها يقول وهو يختمها:

هذه رواية العمر، لم أكتبها لأُظهر براعتي، فما البراعة في أن يحرق المرء قلبه على الورق؟! إنما كتبتها لأُنجّي روحًا من قيدٍ لم تستحقه. ولعلّي، إن لم أبقَ حيًّا حتى ترى النور، أن أترك فيها شهادتي الأخيرة:

إنَّ إسبيرانزا لم تكذب يومًا، وإنّها في صدقها كالمرآة التي تُظهر الوجوه بغير زينة ولا مساحيق، فهي صادقة، بكلّ حدثٍ من أحداث هذه القصة.

لا أدري في أيّ مكانٍ تقرئين كلماتي هذه يا إسبيرانزا، ولكني سميت هذه الرواية باسمك، ليعلم الناس أنّكِ حيّة في قلوبنا وإن سجنوك، وليعلموا أني أحببتك أكثر مما أحببت نفسي. فلا تخوني قلبي مرة أخرى ولو باسم الخوف والحماية، فإنني أنا الحامي لكِ إلى أن يفنى العمر.

وهذه شهادتي للعالم: إسبيرانزا بريئة، وهذه قصتها، رواية إسبيرانزا.

تمت

2025/9/6

t.me/books210

سقطتُ أمامه، ولم يكن يعرف أنني وقعت لأراه!
لم أكتب الرسالة..
ووجدت شخصًا كنتُ جيشه الوحيد،
يُصبح كاتبًا معروفًا.
دخلتُ سجنًا أثناء زواجي
لستُ مجرمة، بل قالوا إن الحماية زنزانة...
-آسفة لا أستطيع أن أنشر صورتك-
هل عاد الطائر إلى يدها؟
- كتبتُك روايةً باسمك، ليعرف الناس الحقيقة.
- ما الحقيقة؟
- أنتِ يا إسبيرانزا.؟؟
كنت خائفة إلى أن ظهرت البراءة،
ثم نسيتُ الحياة حين أخبروني أنها أنا
حقيقتي هي أن المهندس لو عرفه الناس؟
لقتلوني، ثمّ قتلوا من كتب رواية إسبيرانزا.

t.me/books2